

الأمثال في القرآن الكريم

د . محمد عبد السلام أبو النيل

افتتاحية

الحمد لله الذي أنزل القرآن الكريم لينتظم به صلاح المعاش والمعاد، وجعله منزها عن العوج باختلال في اللفظ أو تناف في المعنى، أو انحراف عن الدعوة إلى الحق، حتى استوجب الثناء والحمد، لقوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ (الكهف : ١).

وضرب الله في هذا القرآن للناس من كل مثل يحتاجونه، لتحقيق لهم الموعظة، وليتجنبوا المضار ويأخذوا المنافع، مصداقا لقوله تعالى ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (٢٧) ﴿قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ (٢٨) (الرمز: ٢٧ ، ٢٨).

والصلاة والسلام على من تلقى القرآن من ربه، وبلغه، وبيّنه، حتى تركنا على المحجة، لايزيع عنها إلا هالك، المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد النبي الأمين، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد، فإن من أعظم منن الله على العبد أن يوجه إلى الدراسة في كتاب الله العزيز، لأنها غذاء للروح وتنوير للبصائر، وإمتاع للعقل، وقد لفت نظري كثرة ما بالقرآن الكريم من أمثال، حيث أنها محببة إلى النفوس، فعشت بفضل الله مع الذكر الحكيم فترة من الزمن، أتحتفتني بالكثير من المعاني والمعارف.

ولم يشنني عن هذه الدراسة وجود مؤلفات حول أمثال القرآن. ومن أعظمها ما كتبه ابن القيم رحمه الله، وذلك، لأنني عمدت إلى لم المتفرق

وجمع النظائر، حتى يسهل على القارئ أن يلم بالكثير من حكم الأمثال ومراميها في هذا البحث المتوسط في حجمه.

كما أضفت شيئاً جديداً نبه إليه السابقون، ولم يكملوه وهو المثل السائر، فقد وجدت في القرآن الكريم الجمل الغفير منها. فاخترت بعضها بما يتفق وحدود هذا البحث.

وجاء البحث في ثلاثة فصول وخاتمة،

الأول: لفت النظر إلى أمثال القرآن.

الثاني: أقسام أمثال القرآن.

الثالث: من الأمثال السائرة في القرآن الكريم.

والله أسأل أن يمدني بعونه وأن ييسر لي سبيل الرشاد.

إنه سميع مجيب،،،

الفصل الأول

لفت النظر إلى أمثال القرآن

٣٣	٢١	تعريف المثل
٣٤	٢٣	الفرق بين المثل والمثل
٣٤	٢٤	الفائدة من الأمثال
	٢٥	نعمة الله في ضرب الأمثال
٣٥		كراهية ضرب الأمثال بالقرآن
		عند البعض
	٢٦	أنواع الأمثال
	٢٧	ضرب الأمثال من طبائع الناس:
٣٦	٢٨	ضلال الكفار في ضربهم الأمثال:
	٢٩	١ - من ابتلى باجتماع الأعداء له
٣٨	٣٠	٢ - من ابتلى بالضرر
	٣ - من ابتلى بالضيق والتعرض للهلاك	٣٨
	٣٢	٤ - من ابتلى بالتآمر عليه والكيد له
٣٩	٣٣	٥ - من ابتلى بعدم الولد
		ما قاله العلماء في تفسير آية «إن
		الله لا يستحي»
		وجوب احترام أمثال القرآن

الفصل الثاني

أقسام أمثال القرآن

٤٤	٤٢	أ - ظاهر: مصرح به
٤٥	٤٢	ب - كامن: لا ذكر للمثل فيه
٤٦	٤٢	أ - ضرب الله المثل لصفاته العليا
٤٧	٤٢	١ - المعبود السميع المحيب
٤٩	٤٣	٢ - القائم على أمور خلقه
		٣ - الخالق الحي
		٤ - الحكيم الكريم
		٥ - المتكلم العادل
		٦ - النور الهادي، المشكاة
		المراد بهذا المثل

٧٧	مثل ناري	٥٠	٧ - المحيي المعيد
٨٠	مثل مائي	٥١	ب - ضرب الله المثل للإيمان والكفر
٨١	توضيح المثل المائي	٥١	الإيمان نور والكفر ظلمة
٨٣	١٢ - المنافقون في جبن وخور	٥٣	١ - النجاة والهلكة
٨٤	١٣ - المنافقون كالشيطان	٥٣	٢ - الحياة والموت
٨٦	مثل لسوء الخاتمة	٥٥	٣ - البصر والعمى
٨٨	كل إنسان مؤاخذ بعمله	٥٥	٤ - الماء والمعادن والزبد
٨٨	أ - مثل الكافرين	٥٦	٥ - النخلة والحنظلة
٨٩	ب - مثل للمؤمنين	٥٨	ما قيل في الشجرتين
٩٠	مثل المؤمنين في التوراة والإنجيل		ضرب الله المثل للمؤمن والكافر
٩١	مثل الحياة الدنيا	٥٩	والمنافق
٩٤	أعمال المؤمنين	٥٩	١ - إدراك الإنسان وعجم الحيوان
٩٤	مضاعفة أجر المؤمن	٦٣	٢ - البصر والسمع والعمى والصمم
٩٦	قيام آكل الربا بقيام الممسوس	٦٤	تشبيههم في جهنم بالإبل المرضى
٩٨	إبطال أجر الصدقة بالمن والأذى	٦٤	٣ - شرح الصدر وضيقه
١٠٠	بقاء عمل المؤمن وانھیار عمل المنافق	٦٥	٤ - رضا المؤمن وبطر الكافر
١٠١	أعمال الكفار كرماد اشتدت به الريح	٦٨	٥ - التربة الصالحة والتربة السبخة
١٠١	كصفوان عليه تراب أصابه وابل	٦٩	٦ - الأمن والرغد، والخوف والجوع
١٠١	كالسراب	٧١	٧ - نعيم الآخرة، ومتاع الدنيا
١٠٣	كظلمات في بحر واسع	٧٢	٨ - المهتدي المحق، والزائف المبطل
١٠٤	كزرع أصابته ريح	٧٥	٩ - النعيم في الجنة، والشقاوة في النار
		٧٧	١٠ - دمار المشرك، وحيرة المرتد
		٧٧	١١ - المنافقون في خوف وضياح

الفصل الثالث من الأمثال السائرة في القرآن الكريم

- الأمثال السائرة ضربان:

أ - ماله نظير من أمثال العرب والعجم	١٠٦	بعض ما أثر عن جعفر بن شمس	
ما استنطبه ابن الفضل من ١ - ١١	١٠٦	الخلافة ١ - ٢٠	١١٥
ومن ذلك أيضا: ١٢ - ٣٦	١٠٩	ما يمكن استنباطه ١ - ١٠٩	١١٧
ميزة القرآن على أمثال العرب	١١٢	خاتمة	١٢٤
ب - ماجرى مجرى المثل	١١٥	فهرس الأعلام المترجم لهم	١٢٥
		ثبت المراجع	١٢٧

الفصل الأول

لفت النظر إلى أمثال القرآن

لقد لفت الله نظر عباده إلى أمثال القرآن، في قوله سبحانه: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ (ابراهيم ٢٥).

وقوله: ﴿وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (النور ٣٥).

وقوله: ﴿وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ﴾ (ابراهيم: ٤٥).

وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (العنكبوت ٤٣).

وقوله: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الحشر ٢١).

ولفت الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم نظرنا كذلك إليها، وأمرنا بالاعتبار بها في الحديث الشريف، الذي أخرجه البيهقي عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن القرآن نزل على خمسة أوجه: حلال، وحرام، ومحكم، ومتشابه، وأمثال. فاعملوا بالحلال، واجتنبوا الحرام، واتبعوا المحكم، وآمنوا بالمتشابه، واعتبروا بالأمثال».

وقد عد الإمام الشافعي رضي الله عنه أمثال القرآن من الأمور التي يجب على المتجهّد معرفتها من علوم القرآن، فقال^(١): ثم معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدوال على طاعته، المثبتة لاجتناب معصيته، وترك الغفلة عن الحفظ، والازدياد من نوافل الفضل.

(١) البرهان: ١/٤٨٦.

وقال الإمام الماوردي^(١): من أعظم علم القرآن علم أمثاله، والناس في غفلة عنه، لانشغالهم بالأمثال، وإغفالهم الممثلات.

تعريف المثل:

قال المبرد^(٢): المثل مأخوذ من المثال، وهو قول سائر يشبه فيه حال الثاني بالأول. والأصل فيه التشبيه، فمعنى مثل بين يديه: إذا انتصب كالصورة المنتصبة.

والمثال: القصاص، لتشبيه حال المقتص منه بحال الأول، فحقيقة المثل ما جعل كالعلم، للتشبيه بحال الأول.

وقال ابن السكيت^(٣): المثل: لفظ يخالف لفظ المضروب له، ويوافق معناه معنى ذلك اللفظ، شبهوه بالمثل الذي يعمل عليه غيره.

وقال الميداني^(٤): أربعة أحرف سمع فيها فِعْل وفَعْل، وهي: مِثْل ومَثَل، وشَبَّه وشَبَّه، وبَدَّل وبَدَّل، ونَكَلَ ونَكَلَ^(٥)، فَمِثْل الشيء ومَثَله، وشَبَّهه وشَبَّهه: ما يماثله، ويشابهه قدرا وصفة.

وقال الفيروز آبادي^(٦): المِثْل والمَثَل والمِثْل، كالشَبَّه والشَبَّه والتشبيه، لفظا ومعنى. والجمع: أمثال.

(١) الإتيان: ٤/٣٨، والماوردي، هو أبو الحسن: علي بن محمد بن حبيب، الفقيه الشافعي صاحب كتاب الأحكام السلطانية وغيره. توفي ببغداد سنة ٤٥٠ هـ (وفيات الأعيان: ٣/٢٨٢).

(٢) الأمثال في القرآن: لابن القيم ٣٢، والمبرد، وهو أبو العباس: محمد بن يزيد بن عبد الأكبر، كان إماما في النحو واللغة، توفي سنة ٢٨٥ هـ ببغداد. (وفيات الأعيان: ٤/٣١٣).

(٣) المرجع السابق ٣٣، وابن السكيت: هو أبو يوسف: يعقوب بن إسحق، ت ٢٤٤ هـ (وفيات الأعيان: ٦/٣٩٥).

(٤) المرجع السابق ٣٤، والميداني: هو أبو الفضل: أحمد بن محمد، بن أحمد النيسابوري، من تصانيفه ﴿الأمثال﴾ ت ٥٣٩ هـ (وفيات الأعيان: ١/١٤٨).

(٥) رجل: نكل ونكل: الذي ينكل به أعداؤه.

(٦) بصائر ذوي التمييز: ٤/٤٨١ والفيروز آبادي: هو مجد الدين: محمد بن يعقوب، صاحب القاموس المحيط ت ٨١٧ هـ.

وقد يعبر بالمثل والشبه عن وصف الشيء، نحو قوله تعالى: ﴿مَثَلُ
أَبْخَنَةَ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ﴾ (الرعد ٣٥).

وقد يستعمل المثل عبارة عن المشابه لغيره في معنى من المعاني، أي
معنى كان. وهو أعم الألفاظ الموضوعية للمشابهة، وذلك أن الند فيما يشاركه
في الجوهرية فقط، والشكل فيما يشاركه في القدر والمساحة، والشبه يقال
فيما يشاركه في الكيفية فقط، والمساوي فيما يشاركه في الكمية فقط.

والمثل عام في جميع ذلك.

ولهذا لما أراد الله نفى التشبيه عنه من كل وجه خص المثل بالذكر
فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى ١١).

وقيل في^(١) الجمع بين الكاف والمثل في هذه الآية الكريمة: إن ذلك
لتأكيد النفي، تنبيها على أنه لا يصح استعمال المثل ولا الكاف، فنفي بليس
الأمرين جميعا.

وقيل: المثل ههنا بمعنى الصفة، ومعناه: ليس كصفته صفة، تنبيها
على أنه وإن وصف بكثير مما يوصف به البشر، فليس تلك الصفات له على
حسب ما يستعمل في البشر.

وقال الزمخشري^(٢): المثل في الأصل بمعنى المثل، أي النظير، يقال:
مثل ومثل ومثيل، كشبه وشبه وشبيه، ثم قال: ويستعار للحال، أو الصفة، أو
القصة.

والمثلة: العقوبة، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ
الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثَلَتُ﴾ (الرعد ٦).

جاء بتفسير الطبري - ١٣ / ١٥ - : يستعجل يا محمد مشركوا قومك
بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية، فيقولون - ما ذكره الله لنا - : ﴿وَإِذْ قَالُوا

(١) المرجع السابق.

(٢) البرهان: ١/٤٩٠، والزمخشري: هو جاد الله، أبو القاسم، محمود بن عمر، صاحب الكشف،

ت ٥٣٨ هـ.

اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا جَرَّةً مِنَ السَّمَاءِ أَوْ اقْتِنَا
بِعَذَابِ الْيَمِّ ﴿ (الأنفال : ٣٢) وهم يعلمون ما حل بمن خلا قلبهم من الأمم
التي عصت ربها، وكذبت رسله، من عقوبات، فمن أمة مسخت قردة
وخنازير، إلى أمة أهلك بالرجفة وأخرى بالريح، أو الخسف، أو الغرق.
وذلك هو المثالات، والمثالات: العقوبات المنكلات، واحداها مثلة - بفتح
الميم، وضم الثاء. كصدقة وصدقات. وقال مجاهد: المثالات: الأمثال.

الفرق بين المثل والمثل :

وقد علق الزركشي^(١) على رأي الفيروز بادي والزمخشري بقوله: وما
يقال بأن المثل والمثل بمعنى، ينبغي أن يكون المراد فيه باعتبار الأصل. وهو
الشبه، وإلا فالمحققون - كما قال ابن العربي^(٢) - على أن المثل (بالكسر) عبارة
عن شبه المحسوس، وبالفصح عبارة عن شبه المعاني المعقولة، فالإنسان
مخالف للأسد في صورته، مشبه له في جرأته وشدته، فيقال للشجاع أسد،
أي يشبه الأسد في الجرأة.

ولذلك يخالف الإنسان الغيث في صورته، والكريم من الإنسان يشابهه
في عموم منفعته.

وقال غيره: لو كان المثل والمثل سيان، للزم التنافي بين قوله تعالى:
﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

وبين قوله ﴿وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى﴾ (النحل : ٦٠).

فإن الأولى نافية له والثانية مثبتة.

وفرق الإمام فخر الدين^(٣) بينهما، بأن المثل هو الذي يكون مساويا

(١) هو الإمام بدر الدين: محمد بن عبد الله، صاحب البرهان في علوم القرآن. ت ٧٩٤هـ.

(٢) هو أبوبكر: محمد بن عبد الله، صاحب أحكام القرآن، ت: ٥٤٣ هـ.

(٣) هو أبو عبد الله: محمد بن عمر بن الحسين، صاحب التفسير الكبير، ت ٦٠٦ هـ (وفيات: ٢٤٨/

٤).

للشيء في تمام الماهية، والمثل هو الذي يكون مساويا له في بعض الصفات الخارجية عن الماهية.

ويقول الفيروزابادي^(١): والمثل عبارة عن قول في شيء يشبه قولاً في شيء آخر، بينهما مشابهة، ليبين أحدهما الآخر ويصوره، نحو قولهم: الصيف ضعيت اللبن، فإن هذا القول يشبه قولك: أهملت وقت الإمكان أمرك.

ويلاحظ من تعريف العلماء أن الأمثال تشمل التشبيه، وهو ما استخدمت فيه كاف التشبيه، أو كلمة مثل، أو هما معا، أو اكتفى فيه بذكر المشبه والمشبه به. سواء أكان وجه الشبه شيئا واحدا، أم شبهت فيه هيئة بهيئة. وهو ما يعرف بالتشبيه التمثيلي، وتشمل كذلك الأمثال السائرة.

وسمى مثلاً - كما قال الخفاجي^(٢) - لأنه مائل بخاطر الإنسان أبداً، أي شاخص، فيتأسى به ويتعظ، ويخشى، ويرجو. وصف بالسائر لتناقل الناس له، وكثرة دروانه على الألسنة. وإذا كانت الكلمة صائبة وصادرة عن تجربة ولم تدر على الألسنة سميت حكمة^(٣).

وهذا شيء نادر، فالحكمة تدور على الألسنة دوران المثل، بل قد تكون أكثر دوراناً منه، وعلى الأخص حكم القرآن الكريم.

الفائدة من الأمثال:

والفائدة من الأمثال، أنها تقرب المراد للعقل، لأنها تصور المعقول

(١) بصائر ذوي التمييز، ٤/٤٨٢.

(٢) والخفاجي: هو عبدالله بن محمد، بن سعيد، بن سنان، الأديب الشاعر، ت ٤٦٦ هـ (فوات الوفيات: ١/٥٤٨٩ النجوم الزاهرة: ٥/٩٦).

(٣) يقول أبو هلال العسكري ت ٣٩٥ هـ صاحب جهرة الأمثال: إن كل حكمة سائرة تسمى مثلاً، وقد يأتي القائل بما يحس من الكلام أن يتمثل به، إلا أنه لا يتفق أن يسير، فلا يكون مثلاً.

بصورة المحسوس، فتجعل المعاني كالأشخاص، وهذا يشبهها في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس.

وقال الزمخشري: التمثيل إنما يصار إليه لكشف المعاني، وإدناء المتوهم من المشاهد.

ويقول الأصبهاني^(١): لضرب العرب الأمثال شأن ليس بالخفي في إبراز خفيات الدقائق، ورفع الأستار عن الحقائق، تريك المتخيل في صورة المتحقق، والمتوهم في معرض المتيقن، والغائب كأنه مشاهد.

نعمة الله في ضرب الأمثال:

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الروم: ٥٨، الزمر: ٢٧).

أي وصفناهم في القرآن بأنواع الصفات التي هي في القرابة كالأمثال، مثل صفة المبعوثين يوم القيامة فيما يقولون، وما يقال لهم، وما يحصل لهم من عدم الانتفاع بالمعذرة والاستعتاب، أو بينا لهم من كل مثل ينبئهم عن التوحيد والبعث وصدق الرسول. وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الإسراء: ٨٩) أي من كل معنى هو كالمثل في غرابته ووقوعه موقعه في النفس، ومثل: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾ (الكهف: ٥٤).

ويقال - أيضا -: أوردنا للناس في هذا القرآن على وجوه شتى من النظم مختلف المعاني، والحكم التي يحتاجونها في دينهم ودنياهم.

ويرى الإسكافي أن تقديم الناس في الأولى جرى على عادة العرب في تقديم ماعنايتهم بذكره أتم، تنبيها للناس، ليهتموا بالقرآن، وتقديم في هذا القرآن في الثانية، لأنه هو الذي جاءهم بذكر أصحاب الكهف. وخبر الخضر، وقصة ذي القرنين.

(١) الإتيان: ٤/٣٩، والأصبهاني: هو الإمام أبو عبدالله، مسعود بن محمود بن أحمد المفسر، الفقيه، الواعظ، توفي سنة ٥٧٦ هـ. (طبقات المفسرين للداودي: ٢/٣٢١).

وقد قسم أبو عبدالله البكر آباذي^(١) المثل إلى أربعة أوجه:

أحدها: إخراج ما لا يقع عليه الحس إلى ما يقع عليه.

وثانيها: إخراج ما لا يعلم ببديهة العقول إلى ما يعلم بالبديهة.

وثالثها: إخراج ما لم تجر به العادة إلى ما جرت به العادة.

ورابعها: إخراج ما لا قوة له من الصفة إلى ما له قوة.

ويستفاد^(٢) من الأمثال في القرآن أمور كثيرة: التذكير، والوعظ، والحث، والزجر، والاعتبار، وتفخيم الأمر، أو تحقيره، كما أنه يجمع ضراوة الجامع الأبى، ذي الخصومة الشديدة، وذلك لشدة تأثيره في النفوس أكثر من الوصف العادي.

أنواع المثل:

جاء بمقدمة تحقيق^(٣) كتاب الأمثال في القرآن لابن القيم، أن المثل ثلاثة أنواع:

النوع الأول: المثل الموجز السائر، وهو نوعان:

أ - شعبي، لاتعمل فيه ولا تكلف، ولاتقيد بقواعد النحو.

ب - كتابي، صادر عن ذوي الثقافة العالية، كالرسول صلى الله عليه وسلم، وكالشعراء والخطباء.

مثل قوله صلى الله عليه وسلم: (إن من البيان لسحرا)^(٤).

وقول الشاعر:

والمستجير بعمره عند كربته كالمستجير من الرمضاء بالنار^(٥)

(١) البرهان: ١/٤٨٦، وأبو عبد الله البكر آباذي، منسوب إلى بكر آباد، وهي محلة بجرجان.

(٢) البرهان: ١/٤٨٦، الإقتان: ٤/٣٨.

(٣) الأمثال في القرآن لابن القيم ١٩.

(٤) البخاري: نكاح ٤٧، ومسلم: جمعة ٤٧، وأبو داود: أدب ٨٦، ومسنند الإمام أحمد: ١/٢٦٩ وغيرهم.

(٥) قائل هذا البيت هو الشاعر القطامي.

وقولهم: رب عجلة تهب ريثاً^(١).

النوع الثاني: المثل القياسي

وهو سرد وصفي، أو قصصي، أو صورة بيانية، لتوضيح فكرة ما، عن طريق التشبيه والتمثيل، ويسميه البلاغيون: التمثيل المركب، فإنه تشبيه شيء بشيء، لتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين إلى الآخر، أو أحدهما بالآخر.

النوع الثالث: المثل الخرافي

وهي حكاية مغزى على لسان غير الإنسان، لغرض تعليمي، مثل: أكلت يوم أكل الثور الأبيض^(٢).

ويؤكد هذا المثل قول الشاعر:

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا فإذا افترقن تكسرت أحادا

ضرب الأمثال من طبائع الناس:

وضرب الأمثال مما فطر عليه الناس على اختلاف شعوبهم وأزمانهم، بناء على التجارب والوقائع، في أحداث الحياة، وفي تشبيه بعضهم ببعض، وكذلك فعل الرسول صلى الله عليه وسلم. ولكن المحذور على الناس أن يشبهوا الله بشيء من خلقه، أي أن يجعلوا لله مثلاً يشركونه به، أو يقيسونه عليه، فإن ضرب المثل تشبيه حال بحال، لقوله تعالى: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ (النحل: ٧٤).

وهذا مثل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢).

(١) ومن ذلك قول الشاعر، وهو التكلام الضبعي.

قد يدرك المتأني بعض حاجته وقد يكون مع المستعجل الزلل

(٢) وهو من أمثال كلبلة ودمنة التي توضح أن الهلاك في الفرقة.

(٢٢) أي تعلمون ببدهة العقول أن الخالق لا يشبه المخلوق، وتعلمون بوحى الله أن الله ليس كمثله شيء.

ويقول البيضاوي^(١) في تفسير تعليقه سبحانه نهى عباده أن يضربوا الله مثلاً، بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٧٤).

أي: أن الله يعلم فساد ماتعولون عليه من القياس، أو يعلم كنه الأشياء، وأنتم لاتعلمونه، أو يعلم كيف تضرب الأمثال وأنتم لاتعلمون ذلك حق العلم.

وما ضربه صلى الله عليه وسلم من أمثال لله تعالى، كقوله في الحديث الشريف: «الله أفرح بتوبة عبده من أحدكم سقط على بعيره، وقد أضله في أرض فلاة»^(٢)، فذلك من باب إظهار مدى رحمة الله بعباده.

ضلال الكفار في ضربهم الأمثال:

وكما ضل الكفار في ضربهم الأمثال لله عز وجل حتى نهاهم الله عن ذلك، ضلوا في ضربهم المثل للرسول صلى الله عليه وسلم، حتى قال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم:

﴿ أَنْظِرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴾ . (الاسراء:

(٤٨

فقد عجب الله رسوله من صنعهم كيف قالوا عنه تارة: إنه ساحر، وتارة: إنه مجنون، وتارة: إنه شاعر، فضلوا لتناقض كلامهم في قولهم: مجنون، ساحر، شاعر.

وضلوا، عن الحق، فلا يجدون سبيلاً إلى الهدى، ولا يجدون حيلة في صد الناس عنك.

(١) أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ١/٥٦٣ بتصرف.

(٢) اللؤلؤ والمرجان، حديث رقم ١٧٤٨ .

التأليف في أمثال القرآن:

ذكر الزركشي أن الحسين^(١) بن الفضل ممن صنفوا في هذا الفن من المتقدمين. وقال السيوطي: أفرد بالتصنيف الإمام أبو الحسن المارودي. وجاء في معجم المفسرين لعادل نويهض ٨١٧: أن ممن ألفوا في الأمثال:

- ١ - إبراهيم بن محمد (نفطويه) ت ٢٣٢ هـ.
 - ٢ - الجنيد بن محمد، القواريري، البغدادي ت ٢٩٨ هـ.
 - ٣ - علي بن الحسين الرازي، أبو الحسن ت ٢٩١ هـ.
- فقد جاء بطبقات المفسرين للداودي: ٢ / ٤٠٣، له كتاب أمثال القرآن.

٤ - محمد بن علي المعروف بابن الخيمي، ت ٦٢٤ هـ، فقد جاء في معجم المفسرين ٥٨٣ - نقلا عن بغية الوعاة - وهديّة العارفين وغيرهما - أنه من كتبة أمثال القرآن.

وجاء بمقدمة تحقيق الأمثال في القرآن^(٢) لابن القيم: أن هناك أمثال القرآن، لمحمد بن الحسين السلمي، المتوفى سنة ٤١٢ هـ، ولكن لم يأت ذكر لذلك في طبقات المفسرين للسيوطي ص ٩٧، وللداودي الجزء الثاني ١٤٢، وإنما قال السيوطي: صنف للصوفية سننا وتفسيرا، وقال عنه الذهبي في تاريخه: له كتابه حقائق التفسير، ليته لم يصنفه فإنه تحريف وقرمطة.

(١) ص ٢٤ نقلا عن كتاب الأمثال في الحديث، للدكتور عبد المجيد محمود - كلية دار العلوم - جامعة القاهرة من ص ٨٢ - ٩٠ .

(٢) جاء في البرهان: الحسن: والصواب: الحسين بن الفضل، بن عمير البجلي، الكوفي، ثم النيسابوري، المفسر، الأديب، إمام عصره في معاني القرآن ت ٢٨٢ هـ، (طبقات المفسرين - السيوطي ٤٨، الداودي: ١/١٥٩، شذرات الذهب: ١/١٧٨ وكتابه مطبوع بالرياض.

وجاء كذلك أن هناك رسالة في أمثال القرآن، مع شرح روضات الأمثال، لأحمد بن عبدالله الكوزكناني^(١) وهناك الأمثال في القرآن الكريم، لابن القيم (ت ٧١٥ هـ).

أمثال القرآن، للدكتور محمود بن الشريف دار المعارف مصر.
الأمثال القرآنية: لعبد الرحمن حسن حبنكة الميداني دار القلم - بيروت.

وكانت موضوع بعض الرسائل العلمية في الدراسات العليا، مثل:
أمثال القرآن الكريم وأثرها في الأدب العربي إلى القرن الثالث الهجري، لنوري الحق تنوير، وهي رسالة ماجستير بكلية دار العلوم جامعة القاهرة.

المثل في القرآن: منير القاضي، بغداد.
أمثال القرآن، تحقيق د. ناصر بن سعد الرشيد دار مكة.

ضرب الله الأمثال

لله عز وجل أن يضرب الأمثال للناس، ليقرب صفاته إلى أذهانهم، وأن يضرب لهم من كل مثل، فيشبهه ما شاء، يشبه بالكبير والصغير، وبالعظيم والحقير.

والتمثيل - كما قال الزمخشري^(٢) - إنما يصار إليه لكشف المعاني، وإدناء المتوهم من المشاهد، فإن كان الممثل له عظيماً كان الممثل به مثله، وإن كان حقيراً كان الممثل به كذلك، فليس العظمة والحقارة في المضروب به المثل إلا بأمر استدعته حال الممثل له، ألا ترى أن الحق لما كان واضحاً جلياً تمثل له بالضيء والنور، وأن الباطل لما كان بضده تمثل له بالظلمة، وكذلك جعل بيت العنكبوت مثلاً في الوهن والضعف.

(١) المتوفى ١٣٢٧ هـ وكتابه طبع حجر.

(٢) البرهان للزركشي: ٤٨٨/١، نقلاً عن الكشف: ١/٢٦٢ بتصرف.

وإن الله سبحانه لا يترك ضرب الأمثال بأضعف المخلوقات أو أصغرها، ترك من يستحي أن يجعلها مثلاً بسبب حقارتها، لقوله سبحانه:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا﴾ (البقرة: ٢٦).

ويذكر المفسرون أن سبب^(١) نزول هذه الآية أن الله لما ذكر آلهة المشركين، وأنها لا تستطيع خلق أضعف مخلوق وهو الذباب مما تطلّى به من دهن أو طيب، أو يقدم لها لتأكله، أو من جسمها حين تكون مصنوعة من العجوة أو الحلوى في قوله تعالى:

﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ ضُرْبَ مَثَلٍ فَاَسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (الحج: ٧٣).

ولما ضرب الله مثل علاقة الكفار بالهتهم من دون الله التي لا تنفع ولا تنفع بيت العنكبوت الذي لا يقبها حرا ولا بردا، وأنهم لو علموا أن عبادة الأوثان كاتخاذ بيت العنكبوت في الضعف وعدم الجدوى^(٢) ماعبدوها، في

(١) ذكر هذا السبب القرطبي في تفسيره: ١/٢٤١، الدر المنثور فيما أخرجه عبد الغني الثقفي، والواحدى عن ابن عباس، ولكن الطبري ذكر أن سبب النزول هو ما ضربه الله من مثلين للمنافقين بالنار والمطر، فقال المنافقون: الله أعلم وأجل من أن يضرب هذه الأمثال. وقد رجح الطبري هذا السبب بحكم الملاصقة، حيث إن السبب والسبب متجاوران في سورة واحدة. والأول يسبق الثاني بخمس آيات.

ورجح السيوطي في أسباب النزول ما اختاره الطبري، لصحة الإسناد، ولأن ما ذكر عن المشركين لا يلائم كون الآية مدنية.

وما هذا بإشكال، فليس يلزم أن يكون النازل عقب السبب مباشرة، بل إن تأخره يؤكد قدم القرآن، وأنه مجموع في اللوح المحفوظ، قبل أن ينزل على الرسول صلى الله عليه وسلم، وأنه بحق كلام المحيط بما كان، وما يكون، وما هو كائن، سبحانه، ولأمانع من تعدد الأسباب.

(٢) لقد ثبت علمياً أن خيوط بيت العنكبوت أقوى من مثيلاتها من الفولاذ، وإنما ضرب به المثل في الوهن، لأنه لا يقي حرا ولا بردا، ولانعدام العلاقة بين الزوجين، كما هو موجود بين الطيور مثلاً، لأن أنثى العنكبوت تقتل زوجها بعد الفراغ من عملية التزاوج.

وذكر ابن القيم - رحمه الله - أن تحت هذا المثل، أي مما يفيد هذا المثل: أن هؤلاء المشركين أضعف ما كانوا حين اتخذوا أولياء من دون الله، فلم يزدادوا باتخاذهم إلا ضعفا، كما قال تعالى ﴿واخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا، كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا﴾ (مريم: ٨١)، =

قوله سبحانه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بِئْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتُ لَبِيتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مِنْ شَيْءٍ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ٤٢ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ ٤٣﴾ (العنكبوت: ٤١ - ٤٣).

لما نزل ذلك قال الكفار: أرايت حيث ذكر الله الذباب والعنكبوت فيما أنزل من القرآن على محمد أي شيء كان يصنع بهذا؟.

وقال الحسن^(١) وقناة: لما ذكر الله الذباب والعنكبوت في كتابه وضرب للمشركين به المثل، ضحكت اليهود وقالوا: ما يشبه هذا كلام الله، فأنزل الله آية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةً ٢١﴾ قَا فَوْقَهَا فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا ٢٢﴾ يَضِلُّ بِهِ كَثِيرٌ وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرٌ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ ٢٣﴾ (البقرة: ٢٦)

وقد قال العلماء في تفسير الآية الكريمة:

قال الجوهري^(٤): واختلف المتأولون في معنى «يستحي» في هذه

(٨٢) = وقال تعالى: ﴿واتخذوا من دون الله آلهة لعلهم ينصرون لا يستطيعون نصرهم وهم لهم جند محضرون﴾ (يس ٧٤، ٧٥) أي مع أن الكفار يعبدون آلهتهم ويقومون بها، فهم لها بمنزلة الجند وهي لا تستطيع أن تنصرهم لافي الدنيا، ولا في الآخرة، ومن شأن الإله أن ينصر عباده وجنده. وقال تعالى - بعد ذكر هلاك الأمم المشتركة: ﴿وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهتهم التي يدعون من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك وما زادهم غير تنبيت﴾ أي غير تخسير (هود: ١٠١) (الأمثال في القرآن ١٨٩).

وقوله سبحانه: فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا بفترون﴾ (الأحقاف: ٢٨) إلى غير ذلك.

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١ / ٢٤٢.
(٢) نصبت بعوضة لعدة أوجه: أن تكون «ما» زائدة، وهي بدل من مثلا، أو تكون مانكرة، في موضع نصب على البدلية من مثلا، وبعوضة نعت لها، أو على إسقاط الجار، أو تكون «يضرب» بمعنى يجعل، فهي مفعول ثان.

(٣) ما الذي يريده الله بهذا المثل، استفهام إنكاري.

(٤) الجامع لأحكام القرآن: ١/٢٤٢، والجوهري: هو إسماعيل بن حماد، أبو نصر، إمام اللغة والأدب في عصره، ت ٣٩٣ هـ (بغية الوعاة ١٩٥).

الآية، فقيل: لا يخشى، ورجحه الطبري، وفي التنزيل: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (الاحزاب: ٣٧) بمعنى تستحي.

وقال غيره: لا يترك، وقيل: لا يمتنع.

واصل الاستحياء الامتناع عن الشيء، خوفا من مواجهة القبيح، وهذا محال على الله.

وفي صحيح مسلم^(١)، عن أم سلمة رضي الله عنها، أن أم سليم أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله، إن الله لا يستحي من الحق، والمعنى: لا يأمر بالحياء فيه، ولا يمتنع من ذكره.

و«يضرب»: يبين ويوضح، والبعوضة، واحدة البعوض: حشرات مضرّة من ذوات الجناحين تنقل الجراثيم.

«فما فوقها» في الصغر، ما دونها في الحجم.

وقد ضرب - صلى الله عليه وسلم - جناحها مثلا في الصغر، حيث قال^(٢): «أنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزن عند الله جناح بعوضة».

﴿يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا﴾ يخذل به ويوفق، «وما يضل به إلا الفاسقين» أي ما يهلك به إلا من خرج عن طريق الإيمان، لأن أصل الضلال: الإهلاك، لقوله تعالى مخبزا عن منكري العبث ﴿وَقَالُوا أَإِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾. (السجدة ١٠)

وجوب احترام أمثال القرآن

من مظاهر احترام أمثال القرآن وتقديسها ما يلي:

(١) صحيح مسلم - طهارة - وجوب الغسل على المرأة بخروج المني منها: ٣/٢٢٣ بشرح النووي، ومن باقي الحديث: فهل على المرأة من غسل إذا هي احتلمت؟ فقال صلى الله عليه وسلم: «نعم، إذا رأت الماء»...

(٢) البخاري تفسير الكهف ٦، مسلم تفسير ٢٥ ورقم الحديث باللؤلؤ والمرجان ١٧٧٣.

١ - حرمة تعديها، فيجب على المتحدث ألا يزيد فيها، أو يغير منها:

فقد نبه الزركشي إلى ذلك^(١)، بقوله: لايجوز أن تعدي أمثلة القرآن، ولذلك أنكر على الحريري^(٢) قوله في مقامته الخامسة عشرة: فأدخلني بيتا أخرج من الثابت، وأوهي من بيت العنكبوت، فأني معنى أبلغ من معنى أكده الله من ستة أوجه، حيث قال:

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْيُوتِ لَلْيُوتِ لَلْعَنْكَبُوتِ﴾ (العنكبوت ٤١) فأدخل إنَّ، وبنى أفعّل التفضيل، وبناءه من الوهن، وأضافه إلى الجمع، وعرف الجمع باللام، وأتى في خبر إن باللام.

ثم قال: وكان اللائق بالحريري ألا يتجاوز هذه المبالغة، وما بعد تمثيل الله تمثيل، وقوله الله أقوم قيل، وأوضح سبيل.

وكذلك قول بعضهم:

ولو أن ما بي من جوى وصباية على جمل لم يبق في النار خالد
غفر الله له، والله تعالى يقول: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ (الأعراف: ٤٠)، فقد جعل ولوج الجمل في السم غاية لنفي دخولهم الجنة، وتلك غاية لاتوجد، فلايزال دخولهم الجنة منفيًا، وهذا الشاعر قد وصف جسمه بالنحول بما يناقض الآية. ثم قال - أيضا - : ولكن قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ (البقرة: ٢٦)، وقد ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثالا لما دون ذلك، فقال: «إنه ليأتي الرجل العظيم السمين يوم القيامة لايزن عند الله جناح بعوضة»^(٣) وقال: اقرأوا: ﴿فَلَا تَقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَزَنًا﴾^(٤).

الرد على الزركشي:

(١) البرهان: ١/٤٨٤ .

(٢) هو أبو محمد: القاسم بن علي، بن محمد، بن عثمان، صاحب المقامات، وأحد أئمة الأدب واللغة والنحو في عصره (ت ٥١٦ هـ). (إنباء الرواة: ٣/٢٣).

(٣) سبق تخريج هذا الحديث، وكان الزركشي قد ذكر حديثا نقله السيوطي في الجامع الصغير: ٢٢١/٢، عن الترمذي: ﴿لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء﴾.

(٤) الكهف ١٠٥، وللآية معنى آخر، وهو: أنهم لاقيمة لهم في هذا اليوم، أو لاوزن لحسناتهم، ولاتعارض.

ولاحجة للزركشي في استدراكه على ما قرره بضربه - صلى الله عليه وسلم - المثل بما هو دون البعوضة.

وذلك لآمرين:

الأول، أن رب العزة قال «فما فوقها» فقد قال الكسائي^(١)، وأبو عبيدة^(٢) وغيرهما: معنى «فما فوقها» - والله أعلم - ما دونها، أي أنها فوقها في الصغر، قال الكسائي: وهذا كقولك في الكلام: أتراه قصيرا؟ فيقول القائل: أو فوق ذلك، أي هو أقصر مما ترى.

الثاني، أن تشبيهات الرسول - صلى الله عليه وسلم - وتمثيلاته وحي من الله، لعموم قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣٠) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (النجم ٣، ٤).

وقد قرر العلماء أن الأحاديث النبوية نوعان: توقيفية، والمعنى فيه من الله، واللفظ من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أو توقيفية، وهو ما يقوله الرسول - صلى الله عليه وسلم - باجتهاد منه، وتوفيق من الله، واللفظ فيه والمعنى من الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - فإن كان صوابا أقره الوحي، وإن كان فيه شيء عدله الوحي.

ب - كراهية ضرب الأمثال بالقرآن عند البعض

فقد قال الزركشي: نص عليه من أصحابنا العماد^(٣) النهي صاحب البغوي^(٤)، كما وجدته في رحلة ابن الصلاح^(٥) بخطه.

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١/٢٤٣، والكسائي هو: أبو الحسن، علي بن حمزة، بن عبد الله، بن بهمن، أحد القراء السبعة، كان إماما في النحو، واللغة، والقراءات. ت ١٨٩ هـ (وفيات الأعيان: ٣/٢٩٥).

(٢) هو معمر بن المثنى، التيمي بالولاء، النحوي، العلامة، تصانيفه نحو مائتين. ت ٢٠٩ هجرية، أو ٢١٢ أو ٢١٣. (طبقات المفسرين للدودي: ٢/٣٢٨).

(٣) هو أبو محمد: الحسن بن عبد الرحمن بن الحسين، بن محمد النهي، أحد فقهاء الشافعية ت ٤٨٠ هجرية، (اللباب: ٣/٢٥٣) (معجم البلدان: ٨/٣٦٩).

(٤) هو أبو القاسم: عبد الله بن محمد بن عبد العزيز، البغوي، المحدث، الحافظ ت ٣١٧ هجرية (شذرات الذهب: ١/٢٧٥).

(٥) رحلة ابن الصلاح، فوائد جمعها الشيخ تقي الدين أبو عمرو: عثمان بن عبد الرحمن، المعروف بابن الصلاح، المتوفى ٨٤٣ هـ في رحلة إلى الشرق، ضمنها فوائد في سائر العلوم. (هامش البرهان للزركشي. نقلا عن كشف الظنون ٨٣٦).

وفي كتاب فضائل القرآن، لأبي عبيد^(١)، عن النخعي^(٢) قال: كانوا يكرهون أن يتلو الآية عند شيء يعرض من أمور الدنيا.

قال أبو عبيد: وكذلك الرجل يريد لقاء صاحبه أو يهتم بحاجته، فيأتيه من غير طلب، فيقول كالمأزح: ﴿جِئْتُ عَلَى قَدَرٍ يَمْوَسِي﴾ (طه: ٤٠) فهذا من الاستخفاف بالقرآن.

ومنه قول ابن شهاب^(٣): لاتناظر بكتاب الله، ولا بسنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم -.

قال أبو عبيد: يقول: لاتجعل لهما نظيرا من القول ولا الفعل.

جواز ضرب الأمثال من القرآن والسنة:

وفي هذا الذي ذكره الزركشي نظر، فالناس قديما وحديثا يتمثلون بالحكم والأمثال المأثور عن الناس، وأشرف من ذلك وأفضل أن يتمثلوا بقول لله عز وجل، أو قول لرسوله - صلى الله عليه وسلم -.

ولقد ندبنا الله إلى أن نذكر قوله الكريم عند المواقف، ليكون بردا وسلاما على قلوب المؤمنين، حيث يعلمنا ما نقوله عند النوازل في قوله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (البقرة: ١٥٦، ١٥٧).

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتمثل بالآيات الكريمة عند المواقف. ومن ذلك ما أخرجه البخاري^(٤)، عن علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرقه وفاطمة بنت النبي عليه السلام

(١) هو القاسم بن سلام، اشتغل بالحديث والأدب والفقه، ولي القضاء بمدينة طرسوس ثماني عشرة سنة. ت ٢٢٢ هـ (وفيات الأعيان: ٤/٦٠).

(٢) هو أبو عمران، وأبو عمار: إبراهيم بن زيد، بن الأسود... بن مالك، بن النخع، الفقيه الكوفي، أحد الأئمة المشاهير، تابعي، رأى عائشة رضي الله عنها: ت ٩٦ هـ. (وفيات: ١/٢٥).

(٣) هو محمد بن مسلم، بن عبيد الله، الزهري، أحد الأئمة من التابعين، رأى عشرة من الصحابة ت ١٢٤ هـ (وفيات الأعيان: ٤/١٧٧).

(٤) البخاري - تهجد - باب تحريض النبي - صلى الله عليه وسلم - على قيام الليل والنوافل من غير إيجاب.

ليلة، فقال: ﴿أَلَا تَصْلِيَانِ﴾؟ فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك، ولم يرجع إلى شيئا، ثم سمعته وهو مول يضرب فخذه وهو يقول: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ (الكهف: ٥٤).

وقد أخرج البخاري ^(١)، عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقي في النار، وقالها محمد صلى الله عليه وسلم حين قالوا: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكَ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (١٧٣) (آل عمران: ١٧٣).

وذلك، أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - لما خرج هو وأصحابه في إثر العدو بعد أحد، وكان أبو سفيان وأصحابه قد قالوا بعد رجوعهم عن أحد: لا محمدا قتلتم، ولا المدينة دخلتم، ولا الكواعب أردفتهم، فبئس ما صنعتم، وهموا بالرجوع لينالوا شيئا مما أرادوا، فلما أخبر معبد الخزاعي أبا سفيان بخروج الرسول وأصحابه ومن تخلف عن أحد في جمع كثير فت في عضد المشركين وعدلوا عن الرجوع - واستأجر أبو سفيان من يخبر محمدا صلى الله عليه وسلم وأصحابه بأن أبا سفيان قد جمع لهم الناس، وهو آت لحربهم - فلم يضعف ذلك المسلمين. بل قالوا: ﴿حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾. وواصلوا مسيرهم حتى حمراء الأسد، ولم يجدوا عدوا، بل وجدوا سوقا رابحة، أصابوا من أرباحها، وغنموا رضوان الله. يقول سبحانه: ﴿فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَفَضِّلُوا بَيْنَهُمْ سَوَاءً وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ (١٧٤) (آل عمران: ١٧٤).

وقد أخرج ابن مردويه عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿إِذَا وَقَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ الْعَظِيمِ فَقُولُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾.

وأخرج ابن أبي الدنيا ^(٣)، عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي - صلى

(١) البخاري - تفسير سورة آل عمران - باب: إن الناس قد جمعوا لكم.

(٢) روح المعاني، للآلوسي.

(٣) روح المعاني، للآلوسي.

الله عليه وسلم - كان إذا اشتد غمه مسح يده على رأسه ولحيته، ثم تنفس الصعداء، وقال: ﴿حسبي الله ونعم الوكيل﴾. وأثر عن أهل البصيرة والفضل قول بعضهم: عجبت لمن ابتلى بأربع كيف يغفل عن أربع:

١ - من ابتلى باجتماع الأعداء له. كيف يغفل عن قول الله تعالى ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (آل عمران: ١٧٣) فقد قالها الرسول - صلى الله عليه وسلم - هو وأصحابه حين قال الناس لهم: إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم، فزادهم ذلك إيماناً، واكتفوا بأن يكون الله سندهم. وأنعم به من سند ومن وكيل.

فكانت العاقبة أن القى الله الرعب في قلوب عدوهم، فآثر الفرار، وانقلبوا هم بالأموال، وبمرضاة الله، لم يمسسهم سوء.

وقالها سيدنا إبراهيم عليه السلام - وهو يلقي في النار - فقال القادر سبحانه: ﴿يَنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾ (الأنبياء: ٦٩).

٢ - من ابتلى بالضر من المرض أو فقدان الأهل أو المال، كيف يغفل عن قول الله تعالى: ﴿أَنِّي مَسْنِيَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣).

فقد قالها سيدنا أيوب - عليه سلام - بعد ما ناله من ضر بفقدان المال والولد وشدة المرض، فكانت العاقبة أن كشف الله عنه الضر، فعافاه من المرض وعوضه عن ماله وآتاه أهله مضاعفين، يقول سبحانه: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسْنِيَ الضُّرِّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ، فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنَّا وَعِزًّا لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٣، ٨٤).

٣ - من ابتلى بالضيق والأسر والتعرض للهلاك. كيف يغفل عن قوله تعالى: ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨٧).

فقد قالها سيدنا يونس - عليه السلام - حين خرج من قومه مغاضباً (١)

(١) كان خروج يونس عليه السلم غضباً من قومه، لأنهم لم يؤمنوا، وفراراً من العذاب الذي أنذرهم الله به، وحان مواعده، وعندما جاء العذاب قومه آمنوا، وقبل الله إيمانهم من دون الأمم، يقول سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخُرْزِيِّ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَنَعَّمْنَا بِهِمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾ (يونس: ٩١)، أي آمنت وقت نزول العذاب.

من أجل ربه، فالتقمه الحوت، فنادى ربه في ظلمة بطن الحوت، وظلمة البحر، وظلمة الليل: أن لا إله إلا أنت، أسبحك، وأقدسك وقد ظلمت نفسي، فارحمني.

فكانت النتيجة أن نجاه الله من الغم، فألقاه الحوت بالعراء وهو ضعيف، وأنبأ الله عليه شجرة القرع، يستظل بها، ويأكل من ثمرها، وأعادته إلى قومه المؤمنين.

يقول سبحانه: ﴿وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَظِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُجَيِّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ (الأنبياء: ٨٧، ٨٨).

ويقول سبحانه: ﴿فَبَدَّلْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَاهُ إِلَى مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَآمَنُوا فَتَرَعْنَاهُمْ إِلَى حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ (الصافات: ١٤٥ - ١٤٨).

٤ - من ابتلى بالتأمر عليه والكيد له، كيف يغفل عن قوله تعالى ﴿وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾﴾ (غافر: ٤٤) فقد قالها مؤمن آل فرعون، فنجاه الله من كيدهم وطغيانهم، وحق بهم العذاب، بالهلاك في الدنيا وعذاب القبر، ويوم القيامة، يقول سبحانه ﴿وَيَقُومُ مَالِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْغَفَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ إلى قوله ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفْوِضْ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٣﴾﴾ فوقه الله سيئات ما مكروا وحق بقال فرعون سوء العذاب ﴿٤٥﴾ (غافر: ٤١، ٤٢، ٤٤، ٤٦).

من ابتلى بعدم الولد:

ومن هذا القبيل - أيضا - من ابتلى بعدم الولد، كيف يغفل عن قوله تعالى: ﴿رب لا تذرني فردا وأنت خير الوارثين﴾.

(١) أو يزيدون: قال المبرد: المعنى وأرسلناه إلى جماعة لو رأيتموهم لقلتم: هم مائة ألف، أو أكثر، وإنما خوطب العباد على ما يعرفون. (الجامع لأحكام القرآن: ١٥/١٣٢).

فقد قالها سيدنا زكريا - عليه السلام - فأصلح الله له زوجته التي كانت عاقرا ووهبه يحيى - عليه السلام، يقول سبحانه: ﴿وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ ۝﴾ فَأَسْتَجِبْنَا لَهُ، وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَاهُ، زَوْجُهُ ۝ (الأنبياء : ٨٩ ، ٩٠).

الدعوة إلى التآسي: وفي مطلع بعض بعض الحالات التي ذكرت آنفا أو تذييلها ما يدعو إلى التمثل بأصحابها والاقتداء بقولهم، ففي قوله تعالى - في مطلع الحالة الثانية: ﴿وأيوب إذ نادى ربه﴾ والثالثة: ﴿وذا النون إذ ذهب مغاضبا﴾، والخامسة: ﴿وزكريا إذ نادى ربه﴾ - ما يأمر العبد بأن يذكر حالة أيوب حين نادى ربه، وحالة ذي النون حين غاضب قومه لله، وحالة زكريا حين دعا ربه، وأن يتمثل بهم ويصنع صنيعهم.

وفي قوله تعالى - في تذييل الحالة الاولى: ﴿والله ذو فضل عظيم﴾. والثانية: ﴿رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾. والثالثة: ﴿وكذلك ننجى المؤمنين﴾. والرابعة: ﴿إن الله بصير بالعباد﴾ - مايغري المؤمن باللجوء إلى الله، والطمع في رحمته وفضله كما فعل هؤلاء.

وسيطل المسلم دائما وأبدا - لو خذله إنسان، أو نقض عهده مرة، ثم حاول خداعه بعد ذلك - فإنه يرفض ويقول بملء فيه ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم لأبي عزة الجمحي: ﴿لايلدغ مؤمن من حجر مرتين﴾^(١).

وكان أبو عزة شاعراً يؤلب المشركين على حرب رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقد أسر يوم بدر، فمن عليه الرسول، لأنه ذو حاجة، وذو عيال. على ألا يظاهر عليه أحدا، وألا يقول شعرا ضده، ولكنه غدر، وحرّض الناس بشعره على حرب الرسول، فوقع أسيرا ثانية في أحد، ثم طلب من الرسول أن يمن عليه، فقال صلى الله عليه وسلم هذه الحكمة.

وأورد ابن حجر في الفتح: ١ / ٥٤٧ أنه صلى الله عليه وسلم قال: لا تمسح عارضيك بمكة، تقول: سخرت من محمد مرتين.

(١) البخاري - أدب ٨٣، مسلم - زهد ٦٣، ورقم الحديث باللؤلؤ والمرجان ١٨٨٧.

وذكر أن الطيبي وجه الحديث بأنه - صلى الله عليه وسلم - لما رأى من نفسه الزكية الميل الى الحلم، جرد منه مؤمنا حازما، وليس من شيمة المؤمن الحازم الذي يغضب لله أن ينخدع من الغادر المتمرد، فلا يستعمل الحلم في حقه، بل ينتقم منه .

وصفوة القول: إن التمثيل بآيات القرآن الحكيم أمر محبوب، مرغّب فيه، وماذكره المرحوم الزركشي من حصر ذلك أو كراهيته، فمحمول على من يقول ذلك مازحا .

وليس للمرء في كل النوازل إلا الالتجاء إلى جناب الله، وشفاء النفس بكلامه .

الفصل الثاني أقسام أمثال القرآن

لقد سبق القول: إن الملاحظ من تعريف العلماء للمثل، أن الأمثال تشمل التشبيه، وهو ما استخدمت فيه كاف التشبيه، أو كلمة مثل، أو هما معا، أو اكتفى فيه بذكر المشبه والمشبه به بدون أداة، وتشمل كذلك المثل السائر، لأنه في الأصل تشبيه حالة المضروب له، بحالة من قيل فيه.

ولذلك قسم السيوطي رحمه الله أمثال القرآن إلى قسمين:

أ - ظاهر: مصرح به.

ب - كامن: لا ذكر للمثل فيه.

والنوع الأول قد ضرب منه الله عز وجل المثل لبعض صفاته العليا، وللإيمان والكفر، وللمؤمن، والكافر، والمنافق، وأعمال كل منهم، وللحياة الدنيا.

ضرب الله المثل لصفاته العليا:

١ - المعبود السميع المجيب

في مثل قوله تعالى: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ شَيْءٌ إِلَّا كِبَاسٌ كَفِّهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَلِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ (الرعد: ١٤).

فهذا مثل ضربه الله عز وجل للكفار، ليقارنوا بين دعوة الحق - سبحانه

- الذي ضل من يدعو سواه ^(١)، لأنه يسمع من عباده، ويستجيب، بل ويمنحهم بدون دعاء، وبين دعوة الأصنام التي لاتستجيب لهم دعاء، بل ولا تسمع لهم نداء.

وقد جاء في تفسير القرطبي ^(٢): وفي معنى هذا المثل ثلاثة أوجه:

أحدها: ما روى عن مجاهد: إن الذي يدعو لها من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء إلى فيه من بعيد، يريد تناوله، ولا يقدر عليه بلسانه، ويشير إليه بيده، فلا يأتيه أبداً، لأنه لا يستجيب، وما الماء ببالغ إليه.

ثانيها ما روى عن ابن عباس - رضي الله عنهما -: أنه كالظمآن الذي يرى خياله في الماء، وقد بسط كفه فيه ليلغ فيه، وما هو ببالغه، لكذب ظنه، وفساد توهمه.

ثالثها: - أنه كباسط كفه إلى الماء، ليقبض عليه، فلا يثبت في كفه شيء منه.

وقال علي ^(٣) - رضي الله عنه -: هو كالعطشان على شفة البئر، فلا يبلغ قعر البئر، والماء لا يرتفع إليه.

﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلل﴾ أي ليست عبادة الكافرين الأصنام إلا في ضلال، أي ضياع، وعدم جدوى، لأن هذه الآلهة ستبطل، وتذهب عنهم ساعة الموت، ويوم القيامة، ويسألهم الملائكة - حينئذ - على سبيل التبكيت: ﴿أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّْا﴾ (الأعراف: ٣٧).

٢ - القائم على أمور خلقه

وفي مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ (الرعد: ٣٣).

(١) لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مِنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَهُهُ﴾ (الاسراء: ٦٧).

(٢) ٩/٣٠١.

(٣) المرجع السابق.

فهذا مثل ضربه الله عز وجل للعباد^(١)، ليوازنوا بين الإله القائم على أمور خلقه، الذي قام على كل نفس بما كسبت، أي خلقها، ورزقها، وأقدرها على الكسب، وحفظها. وهو أعلم بحالها، وسيجازيها على عملها، فهو حافظ لا يغفل، وبين العاجز الغافل، بل الجماد الذي يدعونه من دونه.

وجاء بالجامع^(٢) لأحكام القرآن أن الجواب محذوف، والمعنى، أفمن هو حافظ عالم، كمن هو غافل جاهل؟

٣ - الخالق الحي

في مثل قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ (النحل: ١١٧).

يخاطب الله - عز وجل - من كفروا بالله بهذا القول الكريم، يدعوهم فيه إلى المقارنة بين الإله الخالق القادر، وبين ما عبدوه من دون الله من أو ثان لاتضر ولا تنفع، أو مخلوقات لولا أن خلقها الله ما وجدت، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ (النحل: ٢٠).

وقد زاد سبحانه المقارنة وضوحا، إذ أكد أن هذه المعبودات، منها الميت الذي لا يبعث أبدا، أو الحي الذي يعتريه الموت، ولا يدري متى يكون البعث، فضلا عن أن يجازي من عبده، في قوله تعالى: ﴿أَمْ مَوْتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَسْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ (النحل: ٢١).

والإله ينبغي أن يكون عالما بالغيوب، مقدرا للثواب والعقاب.

ويقول المفسرون^(٣): أي وما يعلم هؤلاء الآلهة متى تبعث الأحياء،

(١) المؤمن منهم والكافر، ليزداد المؤمن إيمانا، ويرجع الكافر إلى ربه.

(٢) ٩/٣٢٢.

(٣) الكشف للزخشري: ٢/٤٠٦.

تكهما بحالها، لأن شعور الجماد بأي شيء محال، فكيف بشعور ما لا يعلمه حي، إلا الحي القيوم؟

ثم دمع الله سبحانه الكافرين بالحقيقة الثابتة، وهي الوجدانية لله. رغم إنكار الجاحدين، واستكبارهم، بقوله سبحانه: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكَرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ﴾ (النحل: ٢٢) يعني أنه قد ثبت بما تقدم من إبطال أن تكون الإلهية لغير الله تعالى، أنها له وحده، لا شريك له فيها.

٤ - الحكيم الكريم

وفي مثل قوله تعالى: ﴿* ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَمْلُوكًا لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَمَنْ رَزَقْنَاهُ مِنَّْا رِزْقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنْفِقُ مِنْهُ سِرًّا وَجَهْرًا هَلْ يَسْتَوُونَ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (١).

بعد أن أنهى الله عباده عن أن يضربوا لله الأمثال، لأن ذلك يجعل لله ندا، إذ أن التمثيل تشبيه حال بحال، ولأنه سبحانه يعلم عظم ما ترتكبون من جرم، وسيكون العقاب على مقدار الإثم، وأنتم لاتعلمون كنهه، وكنه عقابه، أو لأن الله يعلم كيف تضرب الأمثال لله، وأنتم لاتعلمون ذلك - علمهم كيف تضرب الأمثال، فبين لهم أن مثلهم في إشراكهم بالله الأوثان مثل من سوى بين عبد ملوك عاجز عن التصرف، وبين حر مالك، قد رزقه الله مالا فهو يتصرف فيه، وينفق منه كيف شاء.

وذكر القرطبي^(٢) في معنى الآية: كما لا يستوي عندكم عبد مملوك لا يقدر من أمره على شيء، ورجل حر، قد رزق رزقا حسنا، فذلك أنا وهذه الأصنام، أي فإذا كان شأنكم وشأن عبيدكم، فكيف جعلتم أحجارا شركاء لله تعالى في خلقه وعبادته، وهي لاتعقل، ولا تسمع.

(١) النحل: ٧٥ .

(٢) في تفسيره: ١٠/١٤٦ .

ويقول ابن القيم ^(١) - رحمه الله -: هذان مثالان متضمنان قياسين من قياس العكس، وهو نفى الحكم، لنفي علته وموجبه، فإن القياس نوعان:
 - قياس طرد: يقتضي إثبات الحكم في الفرع، لثبوت علة الأصل فيه.
 - وقياس عكس: يقتضي نفي الحكم عن الفرع، لنفي علة الحكم فيه.
 فالمثل الأول - وهو مروى عن مجاهد وغيره -: ما ضربه الله لنفسه وللأوثان.

والمثل الثاني - وهو مروى عن ابن عباس -: هو مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فمثل المؤمن في الخير الذي عنده من رزق الله الحسن فهو ينفق منه على نفسه وعلى غيره.

ومثل الكافر الذي هو بمنزلة المملوك العاجز الذي لا يقدر على شيء، لأنه لاخير عنده، فهل يستوي الرجلان عند أحد من العقلاء؟
 ثم قال: والقول الأول أشبه بالمراد، فإنه أظهر في بطلان الدين، وأعظم في إقامة الحجة، وأنسب للمقام.

ويقول البيضاوي ^(٢): مثل الله ما يشرك به بالمملوك العاجز عن التصرف رأساً، ومثل نفسه بالحر المالك، الذي رزقه الله ما لا كثيراً، فهو يتصرف فيه، وينفق منه كيف شاء، واحتج بامتناع الاشتراك والتسوية بينهما، مع تشاركهما في الجنسية والمخلوقية، على امتناع التسوية بين الأصنام التي هي أعجز المخلوقات وبين الله الغني القادر على الإطلاق.

٥ - المتكلم العادل

وقوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلَيْنِ أَحَدُهُمَا أَبْكُرُ لَا يَقْدِرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مَوْلَاهُ أَيْنَمَا يُوَجِّهْ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِي هُوَ وَمَنْ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ٧٦﴾ (النحل: ٧٦).

(١) الأمثال في القرآن ٢٠١، وانظر الجامع لأحكام القرآن: ١٠/١٤٧.

(٢) أنوار التنزيل: ١/٥٦٤.

يقول القرطبي^(١) عن قتادة وغيره: هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لنفسه وللوثن، فالأبكم الذي لا يقدر على شيء هو الوثن، والذي يأمر بالعدل هو الله تعالى.

والأبكم هو الذي ولد أخرس، فلا يفهم، ولا يفهم، وهو ثقل على من يلي أمره ويعوله، هل يستوي ومن هو فهم منطق ذو كفاية ورشد، ينفع الناس، يحثهم العدل الشامل، ولا يتوجه إلى مطلب إلا ويبلغه بأقرب سعي؟ ويقول الزمخشري^(٢): وهذا مثل ثان ضربه الله لنفسه، ولما يفيض على عباده، ويشملهم من آثار رحمته وألطافه ونعمه الدينية والدنيوية. وللأصنام التي هي موات لاتضر ولا تنفع.

ويرى بعض المفسرين^(٣): أنه مثل للكافر والمؤمن، إذ روى عن ابن عباس: أن المقصود بالأبكم هو الكافر، والذي يأمر بالعدل هو المؤمن جملة بجملة. وقد استحسنته القرطبي.

٦ - النور الهادي، المشكاة

وقوله جل وعلا: ﴿ * اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ ۚ كَمَشْكُورَةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (النور: ٣٥).

هذا مثل ضربه الله سبحانه لعباده، ليقرب إلى أذهانهم نوره - جل في علاه - أي هدايته، حيث إن أوضح مثل حسي للإيمان هو النور، وللکفر هو الظلمة. ولذا يقول سبحانه:

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/١٤٩.

(٢) الكشف: ٢/٤٢١.

(٣) الجامع لأحكام القرآن: ١٠/١٤٩.

الطَّغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٥٧﴾
(البقرة: ٢٥٧).

- ومعنى كون الله عز وجل نور السموات والأرض كما روي عن مجاهد والزهري وغيرهما: هو أنه بالله وبقدرته أنارت أضواؤها، واستقامت أمورها، لأنه سبحانه هو الذي أبدع الموجودات، وخلق العقل نورا هاديا حصل به ظهور الموجودات، كما حصل بالضوء ظهور المبصرات، فتبارك الله مبدع الكائنات.

ومثل نوره، أي صفة دلائله التي يقذفها في قلب المؤمن، لأن الدلائل تسمى نورا، فقد سمي الله تعالى كتابه نورا في قوله تعالى^(١): ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (النساء: ١٧٤)، وسمى نبيه نورا، في قوله سبحانه: (قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ)^(١٥) ﴿ (المائدة: ١٥) ووجه إضافة النور إلى الله تعالى أنه مثبت الدلالة ومبينها.

وتوضيح هذا المثل العظيم، أن الله شبه نوره بفتحة في الجدار ليست نافذة، وهذا يزيد من قوة النور، لتجميعه، وعدم انتشاره، وفي هذه المشكاة مصباح، أي فتيل مشعل.

وهذا الفتيل قد وضع في زجاجة في غاية الصفاء والجودة، حتى كأنها كوكب من در، وهو الزهرة.

وفائدة ذلك أنه يعكس الضوء فيزداد، فلو كان في غير الزجاج، أو في زجاج غير دري لامتص الضوء.

والموقد لهذا الفتيل زيت زيتون، قد أخذ من شجرة، لا هي جهة الشرق وحده، فتصيبها أشعة الشمس أول النهار، ولا تصيبها في آخره ولا هي بعكس ذلك، وإنما هي في مكان منكشف من الأرض، فتسلط عليها أشعة

(١) وقوله: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾، وقوله: ﴿آتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة:

٤٤، ٤٦) وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا النُّورَ الَّذِي أَنزَلْنَا مَعَهُ﴾ (الأعراف: ١٥٧) وقوله: ﴿فَأَمْنُوا بِاللَّهِ

وَرَسُولَهُ وَالنُّورَ الَّذِي أَنزَلْنَا﴾ (التغابن: ٨).

الشمس طوال النهار، وفائدة ذلك: أن أشعة الشمس تبخر مايزيد من الماء عن حاجة الأغصان والأوراق والثمار، فيكون الزيت صافيا، عاكسا للضوء، سريع الاشتعال، فيأتي صافيا لايشوبه دخان.

نور على نور، فلقد جمعت المشكاة، أو اجتمع فيها ضوء المصباح، إلى ضوء الزجاجة، إلى ضوء الزيت، فصار لذلك نورا على نور.

يقول القرطبي: واعتقلت هذه الأنوار في المشكاة، فصارت كأنور ما يكون، فكذلك براهين الله تعالى واضحة، وهي برهان بعد برهان، وتنبيه بعد تنبيه، كإرساله الرسل، وإنزال الكتب.

المراد بهذا المثل:

ويرى البعض: أن ذلك مثل لهداية لله.

ويرى فريق ثان: أنه مثل لنور محمد - صلى الله عليه وسلم - أي هدايته، قال ابن الأنباري^(١): ﴿الله نور السموات والأرض﴾ وقف حسن. ثم تبتدئ: ﴿مثل نوره﴾. . على معنى نور محمد.

ولاغربة في ذلك فنور محمد - صلى الله عليه وسلم - من نورالله - عز وجل.

ويرى فريق ثالث كأبي بن كعب والضحك: أنه مثل للإيمان في قلوب المهتدين. والتقدير: الله هادي أهل السموات والأرض، مثل هداه في قلوب المؤمنين كمشكاة.

ويعضد ذلك قوله تعالى ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّنْ رَبِّهِ﴾ (الزمر: ٢٢) والمثل يشمل الأمور الثلاثة، حيث لاتنافي بينها.

ومما لاشك فيه: أن الممثل به دون المثل، فنور الله وهدايته أقوى من

(١) الجامع لأحكام القرآن: ١٢/٢٥٩، وابن الأنباري: هو أبو بكر، محمد بن أبي محمد القاسم، النحوي، صنف في علوم القرآن، وفي الوقف والابتداء، وفي الرد على من خالف مصحف العامة ت ٣٢٨ هـ (وفيات الأعيان: ٤/٣٤١).

ذلك وأكبر، لأن أقوى إضاءة وهي نور الشمس يمكن حجبها، أما هداية الله فلا يحجبها شيء، ولا يمنع وصولها إلى القلب إلا العناد والجحود.

ولقد مدح الشاعر الخليفة ^(١) بقوله:

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
فقال له ناقدوه: لم تزد على أن شبهت الخليفة بأجلاف العرب، فقال
على الفور:

لاتنكروا ضربي له من دونه مثلاً شروداً في الندى والبأس
فالله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

٧ - المحيي المعيد

وقوله سبحانه ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ (٧٨) قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ (٧٩) ﴿ (يس: ٧٨، ٧٩).

أخرج الطبري ^(٢) عن مجاهد وقتاده: أن الذي ضرب المثل وقال ذلك، هو أبي بن خلف، وعن سعيد بن جبير: أنه العاص بن وائل، وعن ابن عباس: أنه عبد الله بن أبي.

وجاء في الكشف ^(٣): وروي أن جماعة من كفار قريش، منهم أبي بن خلف، وأبو جهل، والعاص بن وائل، والوليد بن المغيرة، تكلموا في ذلك، فقال لهم أبي: ألا ترون إلى ما يقول محمد، إن الله يبعث الأموات؟ ثم قال: واللوات والعزى لأصيرن إليه ولأخصمنه، وأخذ عظماً بالياً فجعل يفتته بيده وهو يقول: يا محمد، أترى الله يحيى هذا بعد ما قد رم؟ قال صلى الله عليه وسلم: نعم. ويبعثك، ويدخلك جهنم.

(١) الشاعر: هو أبو تمام. وعمرو: هو عمرو بن معدى كرب، يضرب العرب به المثل في الشجاعة.

(٢) في تيسره ٢٣/٣٠.

(٣) ٣/٣٢١.

وقيل في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مِّبِينٌ﴾ فإذا هو بعد ما كان ماء مهينا رجل مميز، منطيق، قادر على الخصام، مبين، معرب عما في نفسه، أي فليس حاله كمن قال الله فيه: ﴿أَوْ مَنْ يَنْشُرُ فِي الْحَلِيَّةِ وَهُوَ فِي الْخَصَامِ غَيْرُ مِّبِينٍ﴾ (الزخرف: ١٨).

ثم قال الزمخشري: فإن قلت: لم سمى الله قول هذا الرجل مثلاً؟ قلت: لما دل عليه من قصة عجيبة شبيهة بالمثل، وهي إنكار قدرة الله تعالى على إحياء الموتى، أو لما فيه من التشبيه، لأن ما أنكر من قبيل ما يوصف الله بالقدرة عليه بدليل النشأة الأولى، فإذا قيل مثل ذلك على سبيل الإنكار لقدرة الله، كان تعجيزاً لله، وتشبيهاً له بخلقه في أنهم عاجزون عنه. ولذا أبطل الله حجة هذا المخاصم، بأنه نسي القدرة التي خلقته، وأنشأت هذا العظم من قبل، وقد جعلت هذه القدرة - فيما تلمسون - نارا من شجر المروخ، يحكون جذعها بغصن منها - وهي خضراء - فتشتغل. مع أن الخضرة ضد النار، لما بها من ماء، وكيف يغيب عن عاقل أن الذي خلق السموات والأرض - وهي أكبر من خلق الناس وإعادتهم - يكون غير قادر على إحياء الموتى..

ضرب الله المثل للإيمان والكفر:

الإيمان نور، والكفر ظلمة

يقول ابن القيم^(١) - رحمه الله -: لقد جعل الله سبحانه وتعالى الوحي الذي أنزل من السماء متضمناً لحياة القلوب واستنارتها، ولذا أسماه روحاً ونوراً، وجعل من لم يرفع بذلك رأساً أمواتاً في الظلمات.

والحق أن أجساد العباد تحيا بلا روح، وأرواحهم تحيا بالقرآن، فالقرآن روح الأرواح، وكذلك شرع الله^(٢).

(١) الأمثال في القرآن الكريم ١٧٥ .

(٢) في لسان العرب: سمي ما شرع الله للعباد شريعة، والشريعة في كلام العرب: مشرعة الماء، وهي مورد الشاربة، وسميت كذلك، لأن الماء حياة للأبدان، وشرع الله حياة للأنفس والأرواح.

وقد قال الله لرسول صلى الله عليه وسلم عن الوحي: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ (الشورى: ٥٢).

وكذلك ما أنزله على رسله، يقول سبحانه: ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (النحل: ٢). ويقول: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ (غافر: ١٥).

والحق - كذلك - أن ما أنزله الله عز وجل على رسله هو نور يهدي إلى اقوم طريق، ولذا وردت تسميته بالنور في كثير من الآيات القرآنية، في قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّورَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ وقوله: ﴿وَأَتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ﴾ (المائدة ٤٤، ٤٦) وقوله: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ﴾ (الانعام: ٩١).

وقوله: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ (الأعراف: ١٥٧).

وقوله: ﴿فَعَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنْزَلْنَا﴾ (التغابن: ٨) إلى غير ذلك. كما سمي الله رسوله نورا، وسماه سراجا منيرا، في قوله تعالى: ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴿٤٦﴾﴾ (الأحزاب: ٤٦) وكذلك سائر رسل الله الكرام.

وعلى ذلك، فقد شبه الله الإيمان بالنور، وشبه الكفر بالظلمات، وكثر ذكر ذلك في كتابه العزيز، في مثل قوله تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾

(١) إن من طبعك ووظيفتك أنك تهدي من قبل منك. ولاتعارض بين هذا وبين قوله سبحانه: ﴿إنك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء﴾ (القصص: ٥٦) لأن تحقيق السعي بيد الله سبحانه.

(إبراهيم: ١، ٥)، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾ (الأحزاب: ٤٣) إلى غير ذلك.

ومن أمثلة هذا النوع:

١ - النجاة والهلكة، في مثل قوله تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾ (آل عمران: ١٠٣).

فقد مثل الله عز وجل المشركين وأهل الجاهلية - لما هم فيه من تطاحن وانغماس في المنكر يؤدي بهم إلى الهلاك - بمن هو على حافة حفرة من النار على وشك أن يخطفه لهبها.

ويقول البيضاوي: كتتم مشفين على الوقوع في نار جهنم، لكفركم. إذ لو أدرككم الموت على تلك الحال لوقعتم في النار، فأنقذكم الله منها بالإسلام.

٢ - الحياة والموت، والنور والظلمة، في مثل قوله تعالى: ﴿أَوْ مِّن كَانَ مَيِّتًا فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَاهُ نُورًا بَمَنِيِّ بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ (الأنعام: ١٢٢).

فقد مثل الله الإيمان بالحياة، بجامع إعمال الحس، وتحقيق النفع والانتفاع في كل منهما، ومثل الكفر بالموت، بجامع تعطيل الحس، وانعدام النفع في كل منهما.

ومثل الإيمان بالنور، بجامع الاهتداء إلى طريق النجاة، ومناهج التعامل مع الله، وفي الحياة، ومثل الكفر بالظلمات، بجامع التخبط والوقوع في الردى في كل منهما.

ويقول البيضاوي^(١): مثل به من هداه الله - سبحانه وتعالى - وأنقذه من الضلال، وجعل له نور الحجج والآيات، يتأمل بها في الأشياء، فيميز بين الحق والباطل.. كمن هو في الظلمات، أي الكفر، باق على الضلالة، لا يفارقها بحال.

(١) أنوار التنزيل: ١/٣٢٩.

وذكر القرطبي^(١) عن ابن بحر^(٢): أن معناه أو من كان ميتا حين كان نطفة، فأحييناه بنفخ الروح فيه، وقيل: كان ميتا بالجهل، فأحييناه بالعلم. وقال بن عباس. أو من كان كافر فهديناه. وأكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا يَسْتَوِ الْأُحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَاتُ﴾ (فاطر: ٢٢).

فقد أخرج الطبري عن ابن زيد في تفسيره هذه الآية، وثلاث قبلها: أنه قال: هذا مثل ضربه الله لهذا المؤمن الذي يبصر دينه، وهذا الكافر الأعمى، فجعل المؤمن حيا، وجعل الكافر ميتا، ميت القلب... وقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ﴾ (الزمر: ٢٢) فهو مثل لمن هداه الله للإسلام، فأصبح على هدى دائم من تعاليم الله في كل تصرفاته.

والممثل به مقدر في الكلام، كمن لم يشرح الله صدره للإسلام، فهو في تخبط دائم في ظلمات الكفر.

وذكر القرطبي^(٣) عن ابن عباس أن المعنى: وسع الله صدره للإسلام حتى تثبت فيه، وعن السدي: وسع صدره بالإسلام للفرح به، والمظانينة إليه... ﴿فهو على نور من ربه﴾ أي على هدى من ربه، كمن طبع على قلبه وأقساه.

ودل على هذا المحذوف قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبِهِمْ﴾ قال المبرد: يقال: قسا القلب إذا صلب.

ويقول الطبري^(٤) أفمن فسح الله قلبه لمعرفته والإقرار بوحدانيته، والخضوع لطاعته.. كمن أقسى الله قلبه، وضيقه عن استماع الحق، واتباع

(١) الجامع لأحكام القرآن: ٧/٧٨.

(٢) هو: محمد بن بحر الأصفهاني، مفسر، محدث، نحوي، ت ٣٢٢ هـ (معجم المؤلفين: ٩٧٩).

(٣) في تفسيره: ١٥/٢٤٧.

(٤) جامع البيان: ٢٣/٢٠٩.

الهدى، والعمل بالصواب، ثم قال: وترك ذكر الذي أقسى الله قلبه وجواب الاستفهام اجتزاء بمعرفة السامعين المراد من الكلام، إذ ذكر أحد الصنفين، وجعل مكان الصنف الآخر الخبر عنه بقوله: (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله).

٣ - العمى والبصر، في مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ﴾ (الرعد: ١٦).

وقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ وَلَا الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ ﴿﴾ (فاطر ١٩، ٢٠) فقد مثل الله عز وجل الكافر بالأعمى بجامع التخبط وعدم الاهتداء عند كل منهما، فهذا قد غطى بصره عن دلائل الهداية وذلك يتخبط في مشيه لفقدان بصره.

ومثل المؤمن بالبصير، بجامع الاستقامة في المنهج، ووضوح طريق الهداية عند كل منهما.

وقد ذكر الطبري^(١) عن ابن زيد قوله: هذا مثل ضربه الله. فالمؤمن بصير في دين الله، والكافر أعمى.

٤ - الماء والمعادن والزبد، في مثل قوله تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ (الرعد ١٧).

يقول الطبري^(٢): هذا مثل ضربه الله للحق والباطل، والإيمان به والكفر، بأن مثل الحق في ثباته، والباطل في اضمحلاله، مثل ماء أنزله الله من السماء إلى الأرض، فاحتملته الأودية بملئها، الكبير بكبره، والصغير بصغره، فاحتمل السيل فوقه زبدًا عاليًا. فهذا أحد مثلي الحق والباطل،

(١) المرجع نفسه: ٢٢/١٣٩.

(٢) المرجع السابق: ١٣/١٣٤.

فالحق هو الماء الباقي الذي أنزله الله من السماء، والزبد الذي لا ينتفع به هو الباطل.

ومثل آخر للحق والباطل، هو مثل فضة أو ذهب، أو نحاس أو رصاص أو حديد، مما يوقد الناس عليها في طلب حلية يتخذونها، أو متاع ينتفعون به، والزبد الذي يعلو سطح هذه المعادن عند الغلي باطل كزبد السيل، فخالص المعادن كالحق في بقاءه ونفعه، والزبد الذي يعلو سطحها عند الغلي كالباطل في اضمحلاله، وعدم جدواه.

ويقول البيضاوي^(١): مثل الله الحق في إفادته وثباته بالماء الذي ينزل من السماء فتسيل به الأودية على قدر الحاجة والمصلحة، فينتفع به أنواع المنافع، ويمكث في الأرض، بأن يثبت بعضه في منفعه، ويسلك بعضه في عروق الأرض، إلى العيون والقني والآبار.

ومثله - كذلك - بالفلز الذي ينتفع به في صوغ الحلي، واتخاذ الأمتعة المختلفة، التي تبقى لمدد متطاولة.

ومثل الباطل في قلة نفعه، وسرعة زواله بزبدهما، وبين ذلك بقوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ يجفأ به، أي يرمي به السيل، أو الفلز المذاب.

ويقول ابن القيم^(٢): إن الماء يلقي بالزبد، كما يلقي الهدى إذا خالط القلوب بالشبهات والشهوات ويذهبها، وكما تخرج النار الخبث من المعادن وتفصله عن الجوهر الذي ينتفع به، فكذلك يرمي قلب المؤمن الشهوات والشبهات، ويطرحها ويجفوها، وكما استقر الغيث في قرار الوادي، وعم نفعه، واستقر المعدن الصافي، فاتخذت منه حلية، أو متاعاً للنفع، فكذلك يستقر الإيمان الخالص الصافي الذي ينفع صاحبه، وينتفع به غيره^(٣).

٥ - النخلة والحنظلة، وذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا

(١) أنوار التنزيل: ١/٥١٨ .

(٢) الأمثال في القرآن ١٨٢ .

(٣) سيأتي حديث يوضح ذلك.

كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا
وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ وَمِثْلُ كَلِمَةِ خَيْثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَيْثَةٍ أَجْنُتْ
مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ ﴿٢٦﴾ (ابراهيم ٢٤ - ٢٦).

يقرر ابن القيم^(١) - رحمه الله - أخذاً من كلام المفسرين: أن أصل هذا المثل أن الله سبحانه وتعالى شبه الكلمة الطيبة - وهي كلمة التوحيد - بالشجرة الطيبة، وهي النخلة، لأن الكلمة الطيبة تثمر العمل الصالح، والشجرة الطيبة تثمر الثمر النافع، وشبه الكلمة الخبيثة - وهي كلمة الشرك - بالشجرة الخبيثة - وهي الحنظلة - وقد اجتثت، أي اقتلعت من جذورها، وأخذت برمتها، وطرحت، لأن كلمة الشرك لائمة لها، بل إنها سبب الهلاك، ولا أصل، ولا فرع، وكذلك الحنظلة.

ويقول الطبري^(٢): يطلب الله تعالى ذكره من نبيه - وكل من يتأتى منه الخطاب - أن يرى بعين قلبه كيف مثل الله مثلاً وشبه شيئاً: كلمة طيبة: الإيمان بالله تعالى، كشجرة طيبة الثمر، أصل هذه الشجرة ثابت في الأرض، وفرعها مرتفع في السماء، تطعم ما يؤكل منها من ثمرها كل حين بإذن ربها.

ومثل كلمة خبيثة - وهي الشرك - كشجرة خبيثة. . . يقول: الشرك ليس له أصل يأخذ به الكافر، ولا برهان، ولا يستقر عمل الكافر على الأرض، ولا يصعد إلى السماء.

وقد أورد الطبري عن ابن عباس والربيع بن أنس أن الكلمة الطيبة هي كلمة الإيمان. ثم ذكر أن ابن جريج قال: وقال آخرون: الكلمة الطيبة أصلها ثابت في ذات أصل القلب، ﴿وفرعها في السماء﴾: تعرج، فلا تحجب، حتى تنتهي إلى الله.

(١) الأمثال في القرآن ٢٢٨ .

(٢) جامع البيان: ١٣/٢٠٣ .

وأورد عن ابن عباس، وعطية العوفي، والريبع بن أنس، أن المعنى بالشجرة الطيبة: المؤمن، وأنه يعمل في الأرض، فيبلغ عمله السماء.

ما قيل في الشجرتين:

الشجرة الطيبة: ذكر الإمام الطبري^(١): أن المفسرين اختلفوا في الشجرة التي جعلت مثلاً للكلمة الطيبة، فأخرج عن ابن عباس، وأنس بن مالك، وعبدالله بن مسعود، ومسروق، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، أنها النخلة.

وأخرج عن ابن عباس - أيضاً - أنها شجرة في الجنة^(٢)

ثم قال : وأولى القولين عندي بالصواب في ذلك قول من قال: هي النخلة، لصحة الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم أخرج عن مجاهد عن ابن عمر، قال: كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم، فأتى بجمار، فقال: ومن الشجر شجرة مثلها مثل الرجل المسلم، فأردت أن أقول: هي النخلة، فإذا أنا أصغر القوم فسكت.

وفي رواية: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿هل تدرون ما الشجرة الطيبة؟﴾ قال ابن عمر: فأردت أن أقول: هي النخلة، فمنعني مكان عمر، فقالوا: الله ورسوله أعلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ﴿هي النخلة﴾.

وزاد البخاري^(٣) في تفسير الآية، عن ابن عمر أنه قال: فلما قمنا قلت لعمر: يا أبتاه، والله لقد كان وقع في نفسي أنها النخلة، فقال: ما منعك أن تكلم؟ قال: لم أركم تكلمون، فكرهت أن أتكلم، أو أقول شيئاً، قال عمر لأن تكون قلتها أحب إلي من كذا وكذا.

(١) جامع البيان: ١٣/٢٠٤ .

(٢) وفي الكشاف للزغشري هي: النخلة، والتين، والعنب، والرمان، وغير ذلك.

(٣) فتح الباري: ٨/٢٢٨ .

الشجرة الخبيثة، ذكر الطبري عن أكثر أهل التأويل أنها الشريان: الحنظل، وأخرج ذلك عن أنس بن مالك ومجاهد.

وأخرج عن ابن عباس قوله: هذا مثل ضربه الله، ولم تخلق هذه الشجرة على وجه الأرض.

ثم ذكر الطبري خبراً لم يقطع بصحته^(١). أخرج عن أنس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ﴿ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار﴾، قال: ﴿هي الحنظلة﴾. قال شعيب: وأخبرت بذلك أبا العالیه، فقال: كذلك كانوا يقولون.

وقال ابن حجر: وللحاكم من حديث أنس: ﴿الشجرة الطيبة النخلة والشجرة الخبيثة الحنظلة﴾.

ضرب الله المثل للمؤمن، والكافر، والمنافق:

ولقد ضرب الله المثل للمؤمن والكافر والمنافق، ليظهر سبحانه لعباده البون الشاسع بين من يمضي على فطرة الله التي فطر الناس عليها، ومن يتنكب الطريق السوي، في صور حسية متعددة، كي يهتدي الضال، ويزداد المؤمن إيماناً.

ومن أمثلة ذلك:

١ - الإنسان المدرك والحيوان الأعجم، في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْرٌ عَمًى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (البقرة: ١٧١).

ولقد أورد الإمام الطبري^(٢) - رحمه الله - عن كثرة من المفسرين، أن

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره: ٢/٥٥٠ - أن الحافظ أبا بكر البزار أخرجه عن أنس، وقال في نهاية السند: أحسبه رفعه، ثم رواه مرة أخرى عن أنس موقوفاً، وأخرجه ابن أبي حاتم، ورواه أبو بعلي في مسنده. ولم يطعن.

(٢) في تفسيره ٢ / ٨٠ ، ٨١ .

الله سبحانه شبه الكافر - في إصراره على عدم قبول مايلقي إليه - بالبهيمة التي تسمع الصوت، ولا تدرى ما يقال لها.

وذكر عن بعضهم وجها آخر، وهو أن مثل وعظ الذين كفروا وواعظهم كمثل نعق الناقع بغنمه. ونعيقه بها، فأضيف المثل إلى الذين كفروا وترك ذكرا لوعظ والواعظ، لدلالة الكلام عليه.

ثم قال: ويحتمل أن يكون المعنى على هذا التأويل: ومثل الذين كفروا في قلة فهمهم عن الله وعن رسوله، كمثل المنعوق به من البهائم، الذي لا يفقه من الأمر والنهي غير الصوت.

وذكر وجها ثالثا، وهو أن مثل الذين كفروا في دعائهم آلهتهم - وهي لا تسمع ولا تعقل - كمثل الذي ينطق بشيء بعيد^(١)، فهو لا يسمع من أجل البعد، فليس للناقع من ذلك إلا النداء الذي الذي يتعبه.

وجاء في تفسير ابن كثير^(٢): وقيل: إنما هذا مثل ضرب للكافرين في دعائهم الأصنام التي لا تسمع، ولا تبصر، ولا تعقل شيئا.

ثم رجع أن يكون المعنى تشبيه الكافرين فيما هم فيه من الغى والضلال والجهل بالدواب السارحة، التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا نعق بها راعيها لا تفقه ما يقول، وإنما تسمع صوته فقط. وقوله سبحانه: ﴿صَمَّ بَكَم عَمَىٰ﴾ أي صم عن سماع الحق، بكم لا يفقهون به، عمى عن رؤية طريقه ومسلكه ﴿فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي لا يعقلون شيئا ولا يفهمونه، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمُّ وَبُكْرٌ فِي الظُّلُمَاتِ﴾ (الأنعام: ٣٩).

وقوله سبحانه ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا الصَّورَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا

(١) هذا المعنى من تفسير القرطبي: ٢ / ٢١٤ نقلا عن الطبري، وعبرة الطبري في تفسيره غير واضحة المعنى كأن بها خطأ.

(٢) في تفسيره: ١ / ٢١٠، وقد ذكر أن الطبري رجع القول: بأنها في دعوتهم الأصنام، مع أنه رجع أن تكون في الواعظ والوعظ، وتحمس لذلك.

بَشَرٍ مِّثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥٠﴾
(الجمعة: ٥).

فهذا مثل شبه الله عز وجل فيه اليهود والنصارى الذين أنزل الله عليهم التوراة، وأمرهم بالعمل بما جاء فيها من الإيمان بالرسول، واتباع منهج الله، فأهملوها، وتركوا العمل بها، بالحمار الذي يحمل على ظهره كتب العلم، لا ينتفع بها، ولا يعقل ما فيها. وأبش بمثل من يكذب بآيات، والله لا يوفق من أصر على الشرك.

يقول ابن القيم^(١): هذا المثل - وإن كان قد ضرب لليهود - فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن، فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يراع حق رعايته.

ومن هذا القبيل قوله تعالى عن الكافرين واعراضهم عن الدعوة وفرارهم من الداعي: ﴿فَأَلْهَمُ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ﴾ ﴿١٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾ (المدثر: ٤٩ - ٥١).

فقد شبه الله هؤلاء الكفار وأضرابهم - في إعراضهم عن الحق، وفرارهم من الداعي، وحملهم الدهماء والمستشعفين على ذلك - بالحمير الوحشية، حينما ترى الأسد أو الصيادين والرماة، فإنها تدعر وتفر، وقد يطحن قوياها ضعيفها، كما يفعل عتاة الكافرين.

ومن ذلك - أيضا - قوله تعالى: ﴿وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي ءَاتَيْنَاهُ ءَايَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَسَلْنَاهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مِثْلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾

(الأعراف: ١٧٥، ١٧٦).

ويرى بعض المفسرين: أنه كان مؤمنا ثم ارتد، لأن آتيناه آياتنا تشمل أنه قد علمه الله حجج التوحيد، وفهمه أدلته، فأمن ثم انسلك منها، أي خرج

(١) الأمثال في القرآن ٢١٤.

من محبة الله إلى معصيته، ومن رحمته إلى سخطه، وتشمل أنه رغم تبيان دلائل التوحيد لم يقبلها، ولم يؤمن بالله، لأن انسلخ تفيد أيضا تباعد.

وقد رجح الرازي ^(١) تبيان المعنى الأول، لأن قوله تعالى ﴿انسلخ منها﴾ يدل على أنه كان فيها ثم خرج منها، ويستوي أن تكون الآية في بلعام ابن باعر، أو غيره من الكافرين، لأن المثل عام في كل من ارتد بعد إسلامه، أو أصر على الكفر بعد إذ جاءت الآيات والأدلة، والخطاب - كذلك - عام.

ولما فرغ قلب هذا الإنسان من الهدى حلت الغواية محل الهداية - إذ لا بد من أحدهما - أدركه الشيطان، واستحوذ عليه، فألحقه بكفار الإنس وغواتهم، فكان من الغاوين. ولو شاء الله سبحانه لأبقاه على الهداية، أو لفتح قلبه لها، حيث يغلب الجانب الروحي في الإنسان على الجانب المادي، فيرتفع بإيمانه إلى الملاء الأعلى، ولكنه أخلد إلى الأرض، أي غلب الجانب المادي منه على الجانب الروحاني، فمال إلى الدنيا، وسكن إليها، واتبع هواه، فأغرق نفسه في ملذات الحياة وشهواتها، فصار في إصراره على الغواية والكفر كالكلب اللاهث.

ويذكر ابن كثير ^(٢) عن المفسرين في معنى ذلك أن الكافر صار في استمراره على ضلاله وعدم انتفاعه بالموعظة والدعوة إلى الإيمان - كمثل الكلب في دوام لهثه، حملت عليه أو لم تحمل.

وقيل: معناه أن قلب الكافر والمنافق والضال ضعيف، فارغ من الهدى. فهو كثير الوجيب، دائم الخفقان، كما أن الكلب دائم اللهثان.

وذكر الرازي ^(٣) في تقرير هذا التمثيل وجوها، منها: أن كل شيء يلهث فإنما يلهث من إعياء أو عطش، إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الإعياء وحال الراحة، وحال العطش وحال الري - وفي حال الأمن وحال الخوف،

(١) التفسير الكبير: ١٥ / ٥٤ .

(٢) تفسير القرآن العظيم: ٢/٢٧٨ .

(٣) التفسير الكبير: ١٥/٥٦ .

فكان ذلك عادة منه وطبيعة، وكذلك من واظب على العمل الخسيس، والفعل القبيح، لمجرد نفسه الخبيثة، وطبيعته الخسيسة، لا لأجل الحاجة والضرورة.

ويقول ابن كثير في قوله تعالى (ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا): أي ساء مثلهم أن شبهوا بالكلاب، التي لاهمة لها إلا في تحصيل أكلة أو شهوة، فمن خرج عن حيز العلم والهدى، وأقبل على شهوة نفسه، واتبع هواه، صار شبيهاً بالكلب.

ويؤكد ذلك قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ۖ﴾ (محمد: ١٢).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ أُذُنٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ۖ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

٢ - البصر والسمع والعمى والصمم:

في قوله تعالى: ﴿ * مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ۖ﴾ (هود: ٢٤).

ذكر ابن كثير^(١): أن الله تعالى ضرب مثل الكافرين والمؤمنين كالأعمى والأصم، والبصير والسميع، فالكافر أعمى عن وجه الحق في الدنيا والآخرة، لا يهتدي إلى خير، ولا يعرفه، أصم عن سماع الحجج، فلا يسمع ما ينتفع به، وأما المؤمن ففطن، ذكي، لبيب، يميز بين الحق والباطل، فيتبع الحق، ويترك الشر، سميع للحجة، يفرق بينها وبين الشبهة، فهل يستوى هذا وهذا؟

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَن هُوَ أَعْمَى﴾ (الرعد: ١٩).

(١) في تفسير: ٢/٥٢٨.

والمعنى، أ يكون من أ يقن أن ماجاءك حق فعمل به، كمن عمي عن الحق ولم يعمل به، أفهذا كهذا؟. لا استواء.

تشبيههم في جهنم بالإبل المرضى

في قوله تعالى: ﴿فَشَرِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ ۖ فَشَرِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ ۝٥٥﴾ (الواقعة: ٥٤، ٥٥).

فقد شبه سبحانه الكفار في النار حين يشربون على الزقوم وغيره من الأكل ماء مغليا قد اشتد غليانه. فأكلهم الزقوم مع الجوع الشديد يورثهم عطشا، فيشربون هذا الماء المغلي بشراهة، كأنهم الأبل العطاش، التي لاتروى أبدا لداء يصيبها، فقد جاء بتفسير القرطبي ١٧: ٢١٥: أن الهيم هي الإبل يصيبها داء تعطش منه عطشا شديدا، واحداها أهيم، والأنثى هيماء.

وقال الضحاك، والأخفس، وابن عينة، وابن كيسان: الهيم الأرض السهلة ذات الرمل، وروي أيضا عن ابن عباس: فيشربون شرب الرمال التي لاتروى بالماء.

٣ - شرح الصدر وضيقه:

في قوله تعالى: ﴿مَنْ يُرِدْ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ، يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ، يُجْعَلْ صَدْرُهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصْعَدُ فِي السَّمَاءِ ۖ﴾ (الأنعام: ١٢٥). فقد بينت الآية الكريمة أن الله سبحانه يوسع صدر المؤمن ببيان الآيات والحكم، ويوفقه لقبول الهدى والعمل به، كما جاء في الحديث الشريف^(١): ﴿من يرد الله به خيرا يفقهه في الدين﴾ ولايتأتى ذلك إلا بشرح الصدر وتنويره.

ودليل الخطاب - كما ذكر القرطبي^(٢) -: أن من لم يرد الله به خيرا ضيق صدره، وأبعد فهمه فلم يفقه.

(١) البخاري - كتاب العلم ١٣، ومسلم - إمارة، ورقم الحديث باللؤلؤ والمرجان ٦١٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٧/٨١ ومابعدها.

والحرج: شدة الضيق، والمشقة، وعلى ذلك، فقد شبه الله الكافر في نفوره من الإيمان، وثقله عليه، بمنزلة من تكلف ما لا يطيقه، كما أن الصعود إلى السماء لا يطاق^(١).

وروي عن ابن مسعود^(٢) - رضي الله عنه - أنه قرأ ﴿كَأَنَّمَا يَتَّصِدُ﴾ قال النحاس: ومعنى هذه القراءة وقراءة من قرأ يصعد ويصاعد واحد، والمعنى: إن الكافر من ضيق صدره كأنه يريد أن يصعد إلى السماء، وهو لا يقدر على ذلك، فكأنه يستدعي ذلك، وقيل: المعنى كاد قلبه يصعد إلى السماء نبوا عن الإسلام. وقال ابن عباس^(٣) - رضي الله عنهما -: الحرج موضع الشجر الملتف، فكأن قلب الكافر لاتصل إليه الحكمة، كما لاتصل الراعية إلى الموضع الذي التفت شجره. وروى عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - هذا المعنى.

٤ - رضا المؤمن وبطر الكافر:

في قوله تعالى: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فَأَصْبَحَ يَقَلِّبُ كَفِّهِ عَلَى مَا انْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَلْبِثُنِي لَمْ أَشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ ولم تكن له، فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً^(٤).

(الكهف: ٤٢ - ٤٣).

جاء في التفسير الكبير^(٥): أعلم أن المقصود من هذا أن الكفار افتخروا بأموالهم وأنصارهم على فقراء المسلمين، فبين الله تعالى أن ذلك مما لا يوجب الافتخار، لاحتمال أن يصير الفقير غنياً، والغني فقيراً، أما الذي يجب حصول المفاخرة به فطاعة، الله وعبادته، وهي حاصلة لفقراء المؤمنين.

(١) سبب ضيق صدر من يصعد في طبقات الجو العليا: هو أن أعضاء الجسم الداخلية تحاول الخروج بسبب انخفاض الضغط الخارجي عن الضغط الداخلي للجسم، فضلاً عن قلة الأوكسجين. وهذا إعجاز قرآني، حيث سبق القرآن العلم الحديث في الإخبار عن ذلك.

(٢) (٣، ٢) الجامع لإحكام القرآن ٧ / ٨١، ٨٢.

(٤) للفخر الرازي: ٢١ / ١٢٣ بتصرف.

وبين ذلك بضرب هذا المثل المذكور في الآية. فقال ﴿واضرب لهم مثلاً رجلين﴾ أي مثل حال الكافرين والمؤمنين بحال رجلين - يقال إنهما أخوان، أحدهما مؤمن، والآخر كافر، ورثا قدرا متساويا من المال، أما المؤمن فابتغى بماله وجه الله، وآثر ما عند الله من النعيم المقيم على نشب الدنيا ومتاعها.

وأما الكافر فأثر الفانية على الباقية، وجعل يستثمر أمواله في الزراعة وغيرها، فأعطاه الله بستانين عامرين، مملوءين بالزروع والثمار، وقد أعطاهما الله من أسباب البقاء ما ينسى الإنسان غير المؤمن الزوال، ويجعله يركن إليهما، وينكر البعث، ويظن أنه إن بعث فسيجد منقلبا وعاقبة خيرا مما أعطى في الدنيا، حيث أحاطهما الله بالنخل، وملأهما بين الأشجار بالزرع، وشق خلالهما الأنهار، وجعل كل جنة ^(١) منهما تؤتي ثمارها كاملة دون نقص أو انقطاع، وقد آزره في ذلك نفر كثير من الأهل والعمال، فجعل يتباهى على المؤمن ويتفاخر بما عنده: ﴿أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا﴾ وقد أغراه ما يرى في الجنتين حتى ظن أنهما لن تفنيا أبدا، وقال لصاحبه - وقد دخل به جنته ليريه آثارها وحسنها، ويؤكد له أفضليته عليه بما يملك مذكره الله لنا - : ﴿ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا﴾.

وقد جعل المؤمن يذكره بنعمة الله عليه، إذ خلقه من تراب ^(٢)، ثم عدله وسواه حتى أصبح رجلا، ويلومه على كفره بالله، ولكن المؤمن يعترف بربوبية الله له، يرعاه، ويهديه، فلن يشرك به أحدا.

(١) يسمى البستان جنة، لأن الزرع يستر الأرض، أي يخفيها، كالجن والجنين.

(٢) يرى بعض المفسرين: أن المخلوق من تراب هو أبونا آدم - عليه السلام - وأما ذريته فمن نقطة، ولكن الرازي يرى أن أبناء آدم - عليه السلام - كذلك من تراب، وذلك، لأن النقطة مكونة من الحيوان المنوي والبويضة، وكلاهما مكون من مادة الكيلوس، الناتج عن الدم، الناتج عن الغذاء النباتي، أو الحيواني المعتمد على النبات الناتج من الأرض. ومما يؤكد هذا التفسير ما ثبت بالتحاليل أن مكونات جسم الإنسان هي مكونات الأرض، وكذلك الحيوان المنوي والبويضة، وأن الجسم بعد تحلله يعود ترابا.

ودعاه إلى شكر الله على نعمة الجنتين فلولا فضل الله ما كانتا ولا بقيتا، ثم بين له أن دوام الحال من المحال، فقد يعطيه الله خيرا من جنته، ويهلك جنته بحرقها بالصواعق، فتصبح أرضا ملساء، لا يثبت عليها شيء، أو يغير ماءها فلن تستطيع إدراكه.

ولما لم يجد النصيح، وظل على تكبره وغطرسته، أوقع الله بجنته ما حذره منه المؤمن، فهلكت فجعل يندم ويتحسر على ما أنفق فيها، وعلى كفره، ولم يغن عنه ما تفاخر به، ولم ينصره أحد. ويرى البعض أن الرجلين هما من ذكرهما الله عز وجل في قوله سبحانه: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾ (٥٦) قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ ﴿٥٧﴾ يَقُولُ أَأُنْكَ لَمِنَ الْمُصْذِقِينَ ﴿٥٨﴾ أَوَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظْمًا أَأَنَا لَمَدِينُونَ ﴿٥٩﴾ قَالَ هَلْ أَنْتُمْ مُّطْلَعُونَ ﴿٦٠﴾ فَأُطْلِعَ فَرَّاهُ فِي سَوَاءِ الْجَحِيمِ ﴿٦١﴾ قَالَ تَاللَّهِ إِنْ كِدْتَ لَتُرْدِينَ ﴿٦٢﴾ وَلَوْلَا نِعْمَةُ رَبِّي لَكُنْتُ مِنَ الْمُحْضَرِينَ ﴿٦٣﴾ (الصافات: ٥٠ ، ٥٧).

ويمكن أن يكون هذا مثلا لمن يتشبث بنعيم الدنيا، ويفضله على نعيم الآخرة، ومن يفضل نعيم الآخرة على نعيم الدنيا، وأن يكون مثلا لحسن عاقبة من يصبر على شقاء الدنيا يبتغي نعيم الآخرة.

ويرى البعض ^(٢) أن المثل عني به النفس الكافرة، والقلب المؤمن، جعل الله للنفس جنتين، وهما: الهوى والدنيا (من أعناب) الشهوات (وحففناهما بنخل): حب الرياسة. (وجعلنا بينهما زرعاً) من التمتع البهيمية. (وفجرنا خلالهما نهرا) من القوى البشرية والحواس. (وكان له ثمر) من أنواع الشهوات. (وهو يحاوره) يجاذب النفس والقلب.

(١) من ثمام نعيم أهل الجنة: أنهم يذكرون أسباب فوزهم ونجاحهم، وأنهم يطلعون على المعذبين، ليدركوا فضل الله عليهم.

(٢) انظر، غرائب القرآن ورغائب الفرقان: ١٥/١٣٦ .

٥ - التربة الصالحة والتربة السبخة :

في مثل قوله تعالى : ﴿ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ ۚ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا ﴾ (الأعراف : ٥٨).

يقول ابن عباس ^(١) - رضي الله عنهما - في الآية : هذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر .

ويؤكد ذلك التفسير ما أخرجه البخاري ^(٢) عن أبي موسى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ﴿ مثل ما بعثني الله به من العلم والهدى كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا ، فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به ﴾ .

جاء بالتفسير الكبير ^(٣) : المشهور أن هذا مثل ضربه الله تعالى للمؤمن والكافر ، بالأرض الخيرة والأرض السبخة ، وشبه نزول القرآن بنزول المطر ، فشبه المؤمن بالأرض الخيرة التي نزل عليها المطر ، فيحصل فيها أنواع الأزهار والثمار ، وأما الأرض السبخة ، فهي وإن نزل عليها المطر لم يحصل فيها من النبات إلا النزر القليل ، فكذلك الروح الطاهرة النقية عن شوائب الجهل والأخلاق الذميمة ، إذ اتصل به نور القرآن ظهرت فيه أنواع من الطاعات والمعارف والأخلاق الحميدة .

والروح الخبيثة الكدرة وإن اتصل بها نور القرآن لم يظهر فيها من المعارف والأخلاق الحميدة إلا القليل .

وقد ذكر الرازي قولا آخر ، وهو أن ليس المراد من الآية تمثيل المؤمن

(١) تفسير ابن كثير : ٢/٢٢٢ .

(٢) البخاري : علم ، مسلم - فضائل النبي ، ورقم الحديث بالولؤلؤ والمرجان ١٤٧١ ورواه النسائي .

(٣) للفخر الرازي : ١٤/١٤٤ .

والكافر، وانما المراد أن الأرض السبخة يقل نفعها وثمرتها، ومع ذلك فإن صاحبها لا يهتمل أمرها، بل يتعب نفسه في إصلاحها، طمعا منه في تحصيل ما يليق بها من المنفعة، فمن طلب هذا النفع اليسير بالمشقة العظيمة، فلأن يطلب النفع العظيم الموعود به في الدار الآخرة بالمشقة التي لا بد من تحملها في أداء الطاعات، كان ذلك أولى.

والنكد: العسر، الممتنع من إعطاء الخير، على جبهة البخل، والشؤم واللؤم، وقلة العطاء، وقليل الفائدة والخير، كثير الفضول والشر.

٦ - الأمن والرغد، والخوف والجوع:

في مثل قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ (النحل: ١١٢).

لقد ذكر ابن كثير ^(١) أن هذا مثل أريد به أهل مكة، كانت أمنة، مطمئنة، مستقرة. يتخطف الناس من حولها، ومن دخلها كان آمنا، مصداقا لقوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُخَفِّطُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾ (العنكبوت: ٦٧) وكان رزقها يأتيها رغدا من كل مكان، مصداقا لقوله تعالى ﴿أَوَلَمْ نَمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا﴾ وقوله على لسان سيدنا ابراهيم - عليه السلام ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الشَّجَرِ﴾ (البقرة: ١٢٦) وقوله جل في علاه ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ (الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ) ﴿٤﴾ (قريش: ٣، ٤).

﴿فكفرت بأنعم الله﴾ لم تشكر نعمة ربها بالإيمان بالله ورسوله، فبدل الله شعبها جوعا، وأمنها خوفا، حيث دعا عليهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - بسبع سنين كسنى يوسف، فاصابتهم سنة أذهبت كل شيء لهم، فأكلوا العهلز - وهو وبر البعير يخلط بدمه إذا ذبحوه - وأكلوا الجيف،

(١) تفسير القرآن العظيم: ٢/٥٨٩.

والعظام، والقدر^(١). وذكر أن ذلك مروى عن ابن عباس، ومال إليه مجاهد، وقتادة، وعبد الرحمن ابن زيد، وحكاه مالك عن الزهري - رحمهم الله - .

ويقول الرازي^(٢) بشأن هذه الآية: المثل قد يضرب بشيء موصوف بصفة معينة، سواء كان ذلك الشيء موجودا أو لم يكن موجودا، وقد يضرب بشيء موجود معين، فهذه القرية التي ضرب الله بها هذا المثل يحتمل أن تكون شيئا مفروضا، ويحتمل أن تكون قرية معينة، وعلى هذا التقدير الثاني فتلك القرية يحتمل أن تكون مكة أو غيرها، والأكثر من المفسرين على أنها مكة، والأقرب أنها غير مكة، لأنها ضربت مثلا لمكة، ومثل مكة يكون غير مكة، وقد ذكر ابن كثير - في تفسيره - عن أم المؤمنين حفصة - رضي الله عنها - وغيرها: أنها المدينة. ومما يعضد أنها مكة: قوله تعالى في الآية التالية: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (النحل: ١١٣) أي مشركون، لأن الشرك ظلم عظيم.

وإما قول الرازي: إنها ضربت مثلا لمكة فليس بلازم، بل الأولى أن تكون لغير مكة، ليأخذ المسلمون على اختلاف بلدانهم وأزمانهم من ذلك عبرة.

ووصفت القرية بالأمن، وإن كان ذلك لأهلها، لأنها مكان الأمن وظرف له.

وجاء بالتفسير الكبير: إن اللباس لا يذاق بل يلبس، فكان الواجب أن يقال: فكساهم لباس الجوع، أو يقال: فأذاقهم طعم الجوع. ومن الأجوبة عن ذلك: أن الأحوال التي حصلت لهم عند الجوع نوعان:

أحدهما: أن المذوق هو الطعام، فلما فقدوا الطعام صاروا كأنهم يذوقون الجوع.

(١) القدر: الشيء المقدود: اللباس.

(٢) التفسير الكبير: ٢٠ / ١٢٧ .

والثاني: أن ذلك الجوع كان شديدا كاملا، فصار كأنه أحاط بهم من كل الجهات، فأشبهه اللباس.

ومنها - أيضا: أن التقدير: إن الله عرفها لباس الجوع والخوف، إلا أنه تعالى عبر عن التعريف بلفظ الإذاقة، وأصل الذوق أنه بالفم، ثم قد يستعار فيوضع موضع التعرف وهو الاختبار، ومن ذلك قول الشاعر:

ومن يذق الدنيا فإنى طعمتها
وسيق إلينا عذابها وعذابها
ولباس الجوع والخوف هو ما ظهر عليهم من الضمور، وشحوب اللون، ونهكة البدن، وتغير الحال، وكسوف البال.

٧ - نعيم الآخرة ومتاع الدنيا:

في مثل قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ كَمَنْ مَتَّعْنَاهُ مَتَاعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ (القصص ٦١).

فهذا مثل يوضح أفضلية نعيم الآخرة على نعيم الدنيا، ويحمل العاقل على إثارة نعيم الآخرة، وذلك، لأن نعيم الآخرة منافعه أعظم، وهو دائم لايفنى، ولاتشوبه مضار، ولايعقبه عذاب، أما نعيم الدنيا فقليل المقدار، وزائل لايدوم، وتكثر فيه المضار، ويعقبه عذاب الآخرة.

وأعقل الناس هو من أعطى القليل - بالعمل الصالح في الدنيا - ليأخذ الأجر الكثير في الآخرة. فلو قدر العاقل أن نعم الدنيا لن يعقبها عقاب، وأن نعم الآخرة أعظم، لآثر نعم الآخرة، فكيف إذا اتصلت نعم الدنيا بعقاب الآخرة؟

وجاء في التفسير الكبير^(١): أن المراد بقوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَاقِيهِ﴾ فهو يكون كمن أعطاه قدرا قليلا من متاع الدنيا، ثم يكون في الآخرة من المحضرين للعذاب.

(١) للفخر الرازي: ٦ / ٢٥ .

والمقصود: أنهم لما قالوا: تركنا الدين للدنيا. فقال الله لهم: لو لم يحصل عقب دنياكم مضرة العقاب لكان العقل يقتضي ترجيح منافع الآخرة على منافع الدنيا، فكيف وهذه الدنيا يحصل بعدها العقاب الدائم؟

وأورد هذا الكلام على لفظ الاستفهام، ليكون أبلغ في الاعتراف بالترجيح، وتخصيص لفظ المحضرين بالذين أحضروا للعذاب أمر عرف من القرآن، ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين (الصفات : ٥٧)، ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ (١٢٧) (الصفات: ١٢٧).

وفي لفظه إشعار به، لأن الإحضار مشعر بالتكليف والإلزام، وذلك لا يليق بمجالس اللذة، إنما يليق بمجالس الضرر والمكاره.

٨ - المهتدي المحق، والزائع المبطل

في مثل قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوهُ أَهْوَاءَهُمْ﴾ محمد: ١٤ هذا مثل يوضح الفرق بين من هو على الحق - وهو النبي - صلى الله عليه وسلم - ومن اتبعه -، وبين الذين هم على الباطل، - وهم الكفار-، ليعلم أن نصر الفريق الأول محقق، وخذلان الفريق الثاني ودحضه أمر لا ريب فيه، تدليلاً على قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿وَكَايْنٍ مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْنَاكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ﴾ (محمد: ١٣).

وجاء في التفسير الكبير^(٢): أعلم أن الحال يناسب تعذيب الكافر وإثابة المؤمن، وقوله: ﴿على بينة﴾ فرق فارق، وقوله: ﴿من ربه﴾ مكمل له، وذلك أن البينة إذا كانت نظرية تكون كافية للفرق بين المتمسك بها، وبين

(١) السورة مكية، وهذه الآية نزلت بالطريق إلى مكة، أثناء الهجرة (تعريف بالسورة بالمصحف المطبوع بتصريح من مشيخة الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية)، نقلاً عن: كتاب ﴿غيث النفع﴾ للعلامة السفاقي، وإرشاد القراء والكاتبين، لأبي عيد رضوان المخللاتي، كتاب أبي القاسم: عمرو بن محمد بن عبد الكافي.

(٢) للإمام الرازي: ٢٨ / ٥٣ .

القائل قولاً لا دليل عليه، فإذا كانت البينة منزلة من الله تعالى صارت أقوى وأظهر، فتكون أعلى وأبهر.

وكذلك، قوله تعالى: ﴿كَمَنْ زَيْنَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ﴾ فرق فارق، وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَهْوَاءَهُمْ﴾ تكملة، وذلك أن من زين له سوء عمله وراجت الشبهة عليه، في مقابلة من تبين له البرهان وقبلة، لكن من راجت الشبهة عليه قد يتفكر في الأمر، ويرجع إلى الحق، فيكون أقرب إلى من هو على البرهان، وقد يتبع هواه ولا يتدبر في البرهان، ولا يتفكر في البيان، فيكون في غاية البعد.

ومن ذلك - أيضاً - قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كَتَبُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً أُولَٰئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ﴾ (هود: ١٧).

فهذا يوضح الفرق بين من هو متبع للحق بدلالة القرآن عليه، الذي يتلوه جبريل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وكلاهما خير شاهد على صدق القرآن، ومن قبل القرآن شاهد - أيضاً - على الحق، وهو التوراة، التي أنزلها الله إماماً هادياً لبنى إسرائيل، ورحمة لهم، لأنها تنقذهم من ضلال الشرك إلى هدى الإيمان، فله الجنة - وبين من يفكر بذلك كله، لأنه لا يريد إلا الحياة الدنيا^(١) وزيتها، فليس له في الآخرة إلا النار.

وكذلك، قوله سبحانه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَلْبُ نَائِثٍ لَّيْلٍ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ (الزمر: ٩).

فهذا مثل آخر يوضح البون الشاسع بين من يؤدي ما أوجب الله عليه من حقوق وعبادة بالنهار، ثم يقضي الليل الذي جعله الله للسكن والراحة - في صلاة وخشوع وتبذل، خائفاً من العذاب في الدار الآخرة، راجياً رحمة ربه بدخول الجنة، وبين من يشرك بالله، فيجعل له أنداداً، فيضل، ويضل غيره، وسوف يتمتع بكفره هذا زمناً قليلاً، هي فترة الشباب في حياته، ثم مآله النار،

(١) مأخوذ من الآية ١٥ من السورة نفسها: ﴿مَنْ كَانَ يَرِيدَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزَيْتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾.

لقوله تعالى في الآية السابقة: (وإذا مس الإنسان ضرر دعا ربه منيبا إليه ثم إذا خوله نعمة منه نسي ما كان يدعو إليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) (الزمر: ٨).

وكذلك، قوله في علاه: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا﴾ (فاطر: ٨).

فهذا المثل الكريم يوضح الفرق الهائل بين من يتبع الباطل فيكفر بالله ويفرق في الكفر، ويعد ذلك هو العمل الصائب، لأنه صمد على دين الآباء والأجداد، وليس له إلا النار. وبين من يؤمن بالله على هدى وبصيرة ويعمل صالحا، فله الجنة.

وجاء في التفسير الكبير^(١): أن الله يرد على الكافر رؤيته السوء حسنا بالثبات على ما عليه الآباء من ضلال، بأن لستم أنتم أهل الإحسان، لأن المحسن غير، ومن زين له العمل السيء فرآه حسنا غير، بل الذين زين لهم السوء أدنى ممن أساء وعلم أنه مسيء، فإن الجاهل الذي يعلم جهله والمسيء الذي يعلم سوء عمله يرجع ويتوب. والذي لا يعلم يصر على الذنوب. ومن ذلك - أيضاً - قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ (السجدة: ١٨).

فهذا مثل يوضح لكل ذي لب أن المؤمن الذي يسير على الجادة، وحسب هدى الله وشرعه، ويلتزم بأوامر الله وتعاليمه، لا يكون كالفاسق الكافر الذي خرج عن تعاليم الله وهديه، وورد هذا الكلام على صورة الاستفهام، ليكون أبلغ في الاعتراف بعدم المساواة.

وقد أكد سبحانه ما هو مقرر لدى العقلاء من عدم المساواة بين المؤمن والفاسق في قوله: ﴿لَا يَسْتَوُونَ﴾، ثم زاد الأمر تأكيدا ببيان عاقبة كل فريق، في قوله تعالى: ﴿أَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا

(١) للإمام الرازي: ٢٦/٦.

بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَأَوتَاهُمْ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا ﴿٢٠﴾ (السجدة: ١٩، ٢٠).

٩ - النعيم في الجنة والشقاوة في النار:

في مثل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ نَعِيمٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصْنًى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ (١٥) ﴿ (محمد: ١٥).

فهذا مثل يوضح الفرق بين الجنة ونيعم المتقى فيها، وبين النار وشقاوة العاصي فيها.

جاء بالتفسير الكبير^(١): قوله تعالى: ﴿مثل الجنة﴾ يستدعي أمراً يمثل به، فما هو، فيه وجوه.

الأول، ما قاله سيبويه: من أن المثل هو الوصف، أي وصف الجنة، وذلك لا يقتضي ممثلاً به، وعلى ذلك فمثل مبتدأ، والخبر محذوف، تقديره فيما قصصناه، ثم استأنف: فيها أنهار ... أو فيها أنهار: جملة في موقع الخبر، وتجري من تحتها الأنهار: خبر ثان.

الثاني، الممثل به محذوف، غير مذكور، ويحتمل أن يكون: جنة تجري.. كما يقال: مثل زيد، رجل طويل أسمر، فيذكر صفات زيد في رجل منكر، ويحتمل أن يكون: مثل عجب، أو شيء عظيم.

الثالث، الممثل به - كما يقول الزمخشري - مذكور، هو قوله سبحانه: ﴿كمن هو خالد في النار﴾ مشبه به على طريقة الإنكار، فكأنه تعالى قال: مثل الجنة كمن هو خالد في النار.

وعلى هذا فقولته تعالى: ﴿فيها أنهار﴾ وما بعد هذا جمل اعتراضية وقعت بين المبتدأ والخبر.

(١) للإمام الرازي ٢٨/٥٣.

١٠ - دمار المشرك وحيرة المرتد:

في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (الحج: ٣١) أي حاله يوم القيامة مثل الذي لا يملك لنفسه نفعا، ولا يدفع عنها ضرا، فهو بمنزلة من أسقط من السماء، فلا يملك منع نفسه من الهوى، ولا يملك التحكم في الريح التي تعصف به هنا وهناك، ولا في مكان سقوطه، فمآله الدمار، بواسطة الطير التي تقطعه بمناقيرها ومخالبها، أو الريح التي تقذف به في مكان بعيد، بحيث لا يستطيع أحد الوصول إلى أشلائه، لدفنها ومواراتها.

وجاء في تفسير القرطبي: ٥٥/٢٢ -: وقيل: هذا عند خروج روحه وصعود الملائمة بها إلى سماء الدنيا، فلا يفتح لها، فيرمي بها إلى الأرض، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَبُوا بِعَايَتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ (الأعراف: ٤٠).

وجاء في روح المعاني - ١٧/١٤٩ - وشبه الإيمان بالسماء لعلوه، والاشتراك بالسقوط منها، فالمشرك ساقط من أوج الإيمان إلى حضيض الكفر، وهذا ظاهر في حق المرتد، وأما المشرك فباعتبار أنه خالف الفطر.

فتخطفه الطير، فإن الأهواء المردية توزع أفكاره، وفي ذلك تشبيه الأفكار الموزعة بخطف جوارح الطير، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ﴾ (الزمر: ٢٩).

أو تهوى به الريح، أي تسقطه في مكان سحيق، أي بعيد، فإن الشيطان قد طوح به في الضلالة، وفي ذلك تشبيه الشيطان المضل بالريح المهبوية، وهو مأخوذ من قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ تَؤْزُهُمْ أَزًّا﴾ (مريم: ٨٣).

ثم قال: والظاهر، أن تهوي عطف على تخطف، أو للتقسيم، على معنى أن مهلكه إما هوى يتفرق به في شعب الخسار، أو شيطان يطوح به في مهمة البوار.

وفي تفسير القاضي، أنها للتخيير، على معنى أنت مخير بين أن تشبه المشرك بمن خر من السماء فتخطفه الطير، وبين من خر من السماء فتھوى به الريح في مكان سحيق - أو أنها للتنويع - على معنى أن المشبه بالنوع الأول الذي توزع لحمه في بطون جوارح الطير، هو المشرك الذي لا خلاص له من الشرك ولانجاة، والمشبه بالنوع الثاني الذي رمته الريح في المھاوی هو المشرك الذي يرجى خلاصه على بعد.

وقال ابن المنير: إن الكافر قسمان لاغير، مذبذب متمادي على الشك وعدم التصميم على ضلالة واحدة، وهذا مشبه بمن اختطفته الطير وتوزعته، فلا يستولي طائره على قطعة منه الا انتهبها منه آخر، وتلك حال المذبذب، لا يلوح له خيال الا اتباعه وترك ما كان عليه، ومشرك مصمم على معتقد باطل لو نشر بالمناشير لم يكع، ولم يرجع، ولا سبيل الى تشكيكه، ولا مطمع في نقله عما هو عليه، وهذا مشبه في قراره على الكفر باستقرار من هوت به الريح إلى واد سافل، هو أبعد الأحياز عن السماء، فاستقر فيه.

وجوز غير واحد أن يكون من التشبيهات المركبة، فكأنه سبحانه قال: من أشرك بالله تعالى فقد أهلك نفسه إهلاكاً ليس بعده، بأن صور حاله بصورة حال من خر من السماء، فاخطفه الطير، فتفرق قطعاً في حواصلها، أو عصفت به الريح، حتى هوت به في بعض المطارح البعيدة.

١١ - المنافقون في خوف وضياح:

مثل ناري:

في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمٍ لَا يَبْصُرُونَ ۚ صُمُّ بَكْرٍ عَمَىٰ فَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ ۝١٨﴾ (البقرة: ١٧، ١٨). هذا المثل والمثل الذي يليه ضربهما الله عز وجل للمنافقين، الذين يظهرون الإيمان ويبطنون الكفر، والذي يقطع بأنهما في المنافقين ما سبقهما من بيان أوصاف المنافقين، في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝١٨﴾ إلى قوله: ﴿أُولَٰئِكَ

الَّذِينَ اشْتَرَوْا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَاَرَبِحَتْ تَجَرَّتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾ (البقرة: ٨ - ١٦).

وقد أورد الرازي^(١) - رحمه الله - بعض التوضيحات أجتزئ منها:
إن الله سبحانه لما بين حقيقة صفات المؤمنين عقبها بضرب مثلين زيادة في الكشف والبيان:

أحدهما: هذا المثل . وفيه إشكالات، منها:

أولاً: ما وجه التمثيل بين من أعطي نورا ثم سلب ذلك النور منه، مع أن المنافق ليس له نور؟

ثانياً: إن من استوقد نارا فأضاءت قليلا، فقد انتفع بها، وبنارها ثم حرم، فأما المنافقون فلا انتفاع لهم البتة بالإيمان ، فما وجه التشبيه؟

ثالثاً: إن مستوقد النار قد اكتسب لنفسه النور، ثم ذهب الله بنوره، فتركه في الظلمات، والمنافق لم يكتسب خيراً، وما حصل له من الخيبة والحيرة فقد أتى فيه من قبل نفسه، فما وجه التشبيه؟.

والجواب، يرى البعض - كالسدي^(٢) - أن ناساً دخلوا في الإسلام ثم نافقوا.

والتشبيه ههنا في نهاية الصحة، لأنهم بإيمانهم أولاً اكتسبوا نورا، ثم بنفاقهم ثانياً أبطلوا ذلك النور، ووقعوا في حيرة عظيمة، لأن الحيرة في الدين خسران مبين في الدنيا والآخرة.

ويرى الأكثرون عدم صحة ما رآه السدي، لأنهم لم يدخلوا في الدين أصلاً، وهناك تأويل ذكره الحسن - رحمه الله - وهو أنهم لما أظهروا الإسلام فقد ظفروا بحقن دمائهم، وحفظ نساءهم، وأولادهم من السبي، وأموالهم من

(١) التفسير الكبير: ٢/٧٢ وما بعدها.

(٢) هو: إسماعيل بن عبد الرحمن، بن أبي كريمة، السدي، الكوفي، المتوفى سنة ١٢٧هـ (ميزان الاعتدال: ١ / ٢٣٦).

الغنيمة، وظفروا بغنائم الجهاد، وسائر أحكام المسلمين. وعد ذلك نورا من أنوار الإيمان، ولما كان ذلك قليلا بالنسبة للعذاب الدائم، شبهوا بمستوقد النار الذي انتفع بضوئها قليلا، ثم سلب ذلك فدامت حيرته وحسرتة.

ويمكن أن يقال: إن وجه التشبيه ليس في النور، وإنما هو في الحيرة، والتحير فيمن كان في نور ثم زال عنه أشد من تحير من كان في ظلمة مستمرة.

وأن يقال - كذلك -: إن الذي أظهره يوهم أنه من باب النور الذي ينتفع به، وذهب نورهم هو ما يظهرونه لشياطينهم من الكفر والنفاق.

وقوله تعالى: ﴿مَثَلُهم كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ يقتضي تشبيه مثلهم بمثل المستوقد، والمعنى: قصتهم أو صفتهم وشأنهم المتعجب منه كمثل المستوقد نارا، فإن قيل: كيف مثلت الجماعة بالواحد؟

أجيب: بأنه يجوز في اللغة وضع الذي موضع الذين، كقوله تعالى: ﴿وَخُضِّمُوا كَالَّذِي خَاضُوا﴾ (التوبة: ٦٩).

وإنما جاز ذلك؛ لأن الذي وصلة إلى وصف كل معرفة مجملة.

أو المراد جنس المستوقدين، أو جمعهم، أو الفوج الذي استوقد نارا.

أو أن المنافقين وذواتهم لم يشبهوا بذات المستوقد، وإنما شبهت قصتهم بقصته، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ (الجمعة: ٥).

وقوله: ﴿يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ (محمد: ٢٠).

أو مثل كل واحد منهم، كقوله: ﴿ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا﴾ (غافر: ٦٧).

وقد شبهت حالهم بحال من عمل على سطوع النار وارتفاع لهبها، لتضيء ما حوله، فلما أضاءت كل شيء حوله ذهب الله بهذا النور، أخذه وأمسكه عنده، وتركهم في ظلمة شديدة كاملة، حتى صاروا لا يبصرون.

وإنما جاء التعبير الكريم بذهب الذي يفيد أمسك؛ للإشعار بأن ليس في

استطاعتهم استرداده؛ قوله تعالى: ﴿وَمَا يُمَسِّكُ فَلَا مَرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾ (فاطر: ٢).

الضوء؛ للإشعار بانتفاء أية وسيلة للنور؛ لأن الضوء أكمل من النور. ويقول ابن القيم^(١) رحمه الله: «ذهب الله بنورهم» ولم يقل نارهم؛ فإن النار فيها الإضاءة والإحراق، فذهب الله بما فيها من الإضاءة، وأبقى عليهم ما فيها من الإحراق.

وقوله سبحانه في ختام المثل: «صم بكم عمي فهم لا يرجعون» مع أنهم كانوا مبصرين، متكلمين، سامعين للإشعار بشدة عنادهم، وإصرارهم على الكفر، وإعراضهم عما يطرق سمعهم من القرآن، وما يأتي به الرسول من الدلائل، حتى أصبحوا كمن هو أصم في الحقيقة، فلا يسمع، وإذا لم يسمع فلن يتمكن من الجواب، فهو بمنزلة الأبكم، وإذا لم ينتفع بالأدلة ولم يبصر طريق الرشd فهو بمنزلة الأعمى.

ولذلك فهم لا يرجعون عن تمسكهم بما استوجب وصفهم بهذه الصفات، وهو النفاق، أو أنهم بقوا متحيرين خامدين في أماكنهم لا يرحلون، ولا يدرون أيتقدمون أم يتأخرون، وكيف يرجعون إلى المكان الذي بدأوا منه.

مثل مائي

هذا مثل ناري، شبه الله به حال المنافقين، وهذا مثل مائي، في قوله تعالى:

﴿أَوْ كَصَيِّبٍ (٢) مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصْنَعَهُمْ فِي

(١) الأمثال في القرآن ١٧٧.

(٢) استخدمت أو التي تفيد الشك؛ لأن أهل اللغة يتوسعون فيها، فتفيد مجرد التساوي، كقولك: احفظ القرآن، أو الحديث، أي إنهما سيان في عظم نفعهما، ومنه قوله تعالى: ولا تطع منهم أثماً أو كفوراً. (الدهر: ٢٤) وذلك: لأن المنافقين منهم من يشبه أصحاب النار، ومنهم من يشبه أصحاب المطر، كقوله تعالى: «وقالوا كونوا هوداً أو نصارى» (البقرة: ١٣٥).

ءَاذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٢٠﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢١﴾ (البقرة: ١٩، ٢٠).

توضيح المثل المائي:

جاء بالتفسير^(١) الكبير: اعلم أن هذا هو المثل الثاني للمنافقين، وكيفية المشابهة من وجوه منها:

١- إذا حصل السحاب الذي فيه الظلمات والرعد والبرق واجتمع مع ظلمة الليل وظلمة المطر، وعند حدوث الصواعق برعدها وبرقها يضعون أصابعهم في آذانهم، لا خوفاً على ثقب آذانهم من شدة الصوت، وإنما خوف الموت، ويوشك البرق لشدة وسرعة وقوة لمعانه أن يحرق قرنية العين وشبكته، فإذا أضاء البرق لهم مشوا في هديه، وإذا ذهب بقوا في ظلمة عظيمة فوقفوا متحيرين؛ لأن من أصابه البرق في هذه الظلمات الثلاث ثم ذهب عنه تشدد حيرته، وتعظم الظلمة في عينه.

٢- إن المطر، وإن كان نافعا، إلا أنه لما وجد مع هذه الأحوال الضارة من ظلمة ورعد وبرق انعدم الانتفاع به، فكذلك إظهار الإيمان نافع للمنافق ولو وافقه الباطن، ولكن النفاق أذهب نفعه.

٣- إن من نزل به هذه الأمور مع الصواعق ظن أن المنجى له: أن يجعل أصابعه في أذنيه، وذلك لا ينجيه مما يريد الله به من موت وهلاك، فكذلك المنافق، يظن أن ما أظهره للمؤمنين ينفعه، والحقيقة أنه لم ينفعه، بل زاده ضررا.

٤- إن من هذا حاله، فقد بلغ النهاية من الحيرة؛ لاجتماع أنواع الظلمات، وحصول أنواع المخافة، وكذلك المنافقون في نهاية الحيرة في باب

(١) للفخر الرازي: ٢/٧٧.

الدين، ونهاية الخوف في الدنيا، لأن المنافق يتصور في كل وقت أنه لو وقف على باطنه لقتل فلا يكاد الوجل والخوف يزول عن قلبه مع وجود النفاق.

ويفسر البعض قوله تعالى: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يُخْطِفُ أَبْصَارَهُمْ﴾ بأنه يكاد محكم التنزيل يدل على عوراتهم.

والصيب: هو المطر الشديد. والمراد به هنا: الإيمان، والقرآن. والظلمات والرعد والبرق: هو الأشياء الشاقة على المنافقين من التكاليف، وشدة استنكافهم عن الانقياد لمحمد - صلى الله عليه وسلم - فكما أن الإنسان يبالغ في الاحتراز عن المطر الصيب الذي هو أشد الأشياء نفعا بسبب الصواعق والرعد والبرق، فكذلك المنافق يحترز عن الإيمان والقرآن، بسبب مشقة التكاليف، وإلف ما هو عليه من كفر، وشدة الاستنكاف عن اتباع محمد.

وقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ أي أنه قادر عليهم فلن يفلتوا من عقابه، كما لا يفلت المحاط به من المحيط، فهو سبحانه عالم بهم وسيجازيهم، وإن الله عز وجل مهلكهم؛ لقوله تعالى: ﴿إِلَّا أَنْ يُحَاطَ بِكَ﴾ (يوسف: ٦٦).

وقوله: ﴿كَلِمًا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾ أي إذا وجدوا منفعة من الإيمان رغبوا في الدين، وإذا لم يجدوا شيئاً من المنافع كرهوا الإيمان ورغبوا عنه. وثبتوا على كفرهم ونفاقهم؛ لأن قام بمعنى ثبت في مكانه.

وقوله: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ أي لزاد في قصف الرعد فأصمهم، وفي ضوء البرق فأعماهم. أو لو شاء لأهلك المنافقين بسبب كفرهم فتهلك حواسهم، ولكنه سبحانه تركهم للعذاب الأكبر، ولم يشأ عقابهم في الدنيا ليتما دوا في الغي، حيث يظنون أنهم خدعوا الله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ^(١) اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (انساء: ١٤٢).

(١) يظنون - لعدم فضح الله - لهم أنهم يخدعون، والحقيقة أنه سبحانه هو الذي خدعهم بعدم فضيحتهم، وبأمره بإجراء أحكام المسلمين عليهم، لقوله تعالى: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يُخَادِعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة: ١٢).

ويقول الرازي ^(١) : أي التمثيلين أبلغ؟ والجواب: التمثيل الثاني؛ لأنه أدل على فرط الحيرة وشدة الأغاليظ، ولذلك تراهم يتدرجون في نحو هذا من الأهون إلى الأغلظ.

ويقول عن التشبيه الثاني: إن التشبيه مفرق، ومعناه أن يكون المثل مركبا من أمور، والممثل كذلك، ويكون كل واحد من المثل شبيها بكل واحد من الممثل، فشبّه الإسلام بالصيب، لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالماء، وما يتعلق به من شبهات الكفار بالظلمات، وما فيه من وعد ووعد بالبرد والرعد، وما يصيب الكفرة من الفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق.

ويقال عن الممثلين: إنهما تشبيه مركب، وهو الذي يشبه فيه إحدى الجملتين بالأخرى في أمر من الأمور، وإن لم تكن آحاد إحدى الجملتين شبيهة بآحاد الجملة الأخرى، والمقصود هنا: تشبيه حيرة المنافقين في الدنيا والدين بحيرة من انطفأت ناره بعد إيقادها، وبحيرة من أخذته السماء في الليلة المظلمة مع رعد وبرق.

١٢- المنافقون في جبن وخور

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ تُحْكَمُ^(٢) وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ (محمد: ٢٠).

يقول المفسرون ^(٣) : بين الله حال المنافق والكافر، والمهتدي المؤمن عند استماع الآيات العلمية، من التوحيد والحشر، في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰ إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ^(٤) مَاذَا قَالَ

(١) التفسير الكبير: ٧٨/٢ وقد أخذه عن الزخشي في الكشف: ٢١٣/١ .

(٢) لا نسخ فيها، وآياتها من المحكم الذي لا يتحمل إلا وجها واحدا. بخلاف المتشابهة.

(٣) التفسير الكبير: ٦٢/٢٨ .

(٤) أهل العلم، فهم يستمعون استماعا بالغا، وإذا خرجوا يستعيدون من العلماء، كما يفعل المجتهد في طلب العلم، يفعلون ذلك لعدم فهمهم؛ لأن الله طبع على قلوبهم؛ لقوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الْكَافِرِينَ﴾ (الأعراف: ١٠١) أو يفعلونه استهزاء وتعمية؛ ويعضد ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَؤُونَ﴾ (البقرة: ١٤).

ءَانفَا أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴿١٧﴾ (محمد: ١٦، ١٧). - بين حالهما - كذلك - في الآيات العملية، فإن المؤمن كان ينتظر ورودها ويطلب تنزيلها؛ حبا في الاستزادة من الطاعة ورغبة في كشف المنافقين وتعريتهم؛ فقد كان حال المنافق أنه إذا نزلت سورة أو آية فيها تكليف شق ذلك عليه؛ حيث إنه لا يفهم ولا يعمل.

قال سبحانه يشبه حال المنافقين عند ذكر القتال والأمر به حين تشخص أبصارهم جبنا وفزعا وقلقا بحال من أصابته غشية الموت خوفا منه ومن أهواله؛ لأنه عند التكليف بالقتال لا يبقى لنفاقهم فائدة، فإنهم قبل القتال كانوا يترددون بين القبيلين، وعند الأمر بالقتال لم يبق لهم إمكان ذلك.

١٣- المنافقون كالشيطان:

في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ (الحشر: ١٦).

شبه الله عز وجل المنافقين في إغرائهم بني النضير بعدم الجلاء عن المدينة، وأنهم معهم، حتى ولو أجبر اليهود على الجلاء فسيخرج المنافقون معهم، ولن يطيعوا محمدا إذا دعاهم لحرب اليهود، بل لقد أقسموا لهم إن قوتلوا لينصروهم، يقولون ذلك وهم كاذبون، فلن يخرجوا معهم، ولن ينصروهم - وهو ما ذكره الله في قوله: ﴿أَلَمْ يَر إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فَيْكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلِّنَنَّ الْأُخْتَارَ مَا يُنْصَرُونَ ﴿١٢﴾﴾ (الحشر: ١١، ١٢).

شبههم الله في هذا الموقف بالشيطان الذي يغري الإنسان بالكفر ثم يتخلى عنه، كما ذكر الله عز وجل في قوله: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُمْ بِمُصْرِخِي إِنِّي كَفَرْتُ

بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٢﴾ (ابراهيم: ٢٢).

أو شبه الله صنيعهم هذا بصنيع الشيطان يوم بدر، حيث ظهر في صورة سراقه بن مالك ومعه جند له، وقال للمشركين: إني مجير لكم، وكانت قريش تخشى إذا واجهت محمدا - صلى الله عليه وسلم - وجيشه أن تأتيها بكر من خلفها، لما لها من ثأر عند قريش ^(١)، وسألوه عن حربهم وموقفهم من محمد فزين لهم حربهم لأنها دفاع عن دين الآباء والأجداد، وأنهم لن يغلبوا لكثرة العدد والعدة. فلما تراءى الفريقان ورأى جبريل عليه السلام يصف الملائكة ^(٢) وكانت يده في يد الحارث بن هاشم، فانتزعها منه، وحاول الحارث منعه فدفعه إبليس في صدره، وفر مذعورا، وتبرأ منهم، لأنه يرى مالا يرون، وهو الذي ذكره الله عز وجل في قوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌّ لَكُمُ فَلَمَّا تَرَأَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقَبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِّنْكُمْ إِنِّي أَرَىٰ مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٤٨﴾ (الأنفال: ٤٨).

فالشيطان أغرى المشركين ثم خذلهم، ويقال: إن المشركين لما واجهوا سراقه وعلموا منه أنه لم يحضر بدرا وفهموا أن الذي لقيهم إبليس، قالوا: أسلمنا عدو الله وانصرف. فالمنافقون فعلوا مثل إبليس، حيث أغروا بني النضير، وخذلوه، فكأنهم أسلموهم، وتخلوا عنهم.

ويسبق ذلك المثل مثل ليهود بني النضير، ولمن هو على شاكلتهم

(١) تفسير بن كثير: ٣١٨/٢ .

(٢) وذكر ابن كثير عن مالك بن أنس . . عن طلحة بن عبيد الله بن كريز: أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: ﴿ما رأي إبليس يوما هو فيه أصفر، ولا أحقر، ولا أدحر، ولا أغيظ، من يوم عرفة. وذلك مما يرى من نزول الرحمة والعفو عن الذنوب. إلا ما رأي يوم بدر﴾ قالوا: يا رسول الله، وما رأي يوم بدر؟ قال: ﴿أما إنه رأي جبريل عليه السلام يزع الملائكة﴾ ثم ذكر أن هذا الحديث مرسل من هذا الوجه.

ليأخذوا العبرة منه، فقد مثل الله ما حل بهم من الإجلاء والتشريد بما حل
ليهود بني قينقاع، حيث يقول سبحانه:

﴿ كَمَثَلِ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَرِيبًا ذَاقُوا وَبَالَ أَمْرِهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (الحشر: ١٥).

وذكر ابن كثير^(١) عن مجاهد، والسدي، ومقاتل بن حيان، يعني كمثلاً
ما أصاب كفار قريش يوم بدر، وعن ابن عباس: كمثلاً للذين من قبلهم. يعني
يهود بني قينقاع، وكذا قال قتادة، ومحمد بن اسحق.

وهذا القول أشبه بالصواب، فإن يهود بني قينقاع كان رسول الله - صلى
الله عليه وسلم - قد أجلاهم قبل هذا، فالآية الكريمة تعني أن مثل بني نضير
كمثلاً لبني قينقاع، في كونهم لقوا عاقبة غدرهم، حيث عذبوا في الدنيا
بالجلاء عن ديارهم في صغار، ولهم في الآخرة عذاب أليم.

مثل لسوء الخاتمة:

في قوله تعالى: ﴿ أَيَوَّدُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّنْ نَّحِيلٍ وَأَعْنَابٌ تَجْرَى مِنْ
تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَةٌ ضُعْفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ
نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٦٦).

لقد ذكر ابن كثير^(٢) أن البخاري أخرج في تفسير هذه الآية عن عبيد
بن عمر قال: قال عمر لأصحاب النبي صلى الله عليه وسلم: فيمن ترون
هذه الآية نزلت؟ فقالوا: الله أعلم. فغضب، وقال: قولوا: نعم، أولاً
نعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا
ابن أخي، قل، ولا تحقر نفسك، فقال ابن عباس - رضي الله عنهما -:
ضربت مثلاً بعمل. قال عمر: أي عمل؟ قال: لرجل غني يعمل بطاعة الله،
ثم بعث الله له الشيطان، فعمل بالمعاصي، حتى أغرقه أعماله.

(١) في تفسيره: ٣٤٠/٤.

(٢) في تفسيره: ٣١٩/١.

وروى البخاري - أيضا - مثله عن ابن جريج .

وذكر ابن كثير - كذلك - أن ابن أبي حاتم روى من طريق العوفي عن ابن عباس، قال: ضرب الله مثلا حسنا، وكل أمثاله حسن، برجل صنع في شيبته بستانا متكاملا، وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره، فجاءه إعصار فيه نار، فاحترق بستانه، فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله، ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه، وكذلك الكافر يكون يوم القيامة إذا رد إلى الله - عز وجل - ليس له خير فيستعذب، كما ليس لهذا قوة، ولا يجده قدم لنفسه خيرا يعود عليه. كما لم يغن عن هذا ولده، وحرم أجره عندما كان أفقر ما يكون إليه، كما حرم هذا جنته عندما كان أفقر ما يكون إليها.

وذكر الرازي ^(١) أن هذا المثل ذكره الله تعالى في حق من يتبع إنفاقه باليمن والأذى، والمعنى أن يكون للإنسان جنة في غاية الحسن، كثيرة النفع، وهو في غاية العجز عن الكسب، وفي أشد الحاجة إليها، وله ذرية ضعفاء في غاية الحاجة، ولا شك أن كونه عاجزا محنة، وكذلك كونه محتاجا، وتعلق جميع المحتاجين العاجزين به زيادة محنة على محنة، فإذا أصبح وشاهد تلك الجنة محترقة بالكلية، فانظر كم يكون في قلبه من الغم والحسرة؛ بسبب ضياع ملكه وشدة حاجته، مع كمال عجزه، وتعلق غيره به، ومطالبتهم إياه بوجوه النفقة.

فكذلك من أنفق لأجل الله، يكون ذلك الإنفاق نظيرا للجنة المذكورة وهو يوم القيامة.

وأما إذا أعقب إنفاقه باليمن أو بالأذى كان ذلك كالإعصار الذي يحرق تلك الجنة، ويعقب الحسرة والحيرة، فكذلك المال المؤذي في يوم القيامة، لن يجد هناك شيئا، وهو في أشد الحاجة إلى الانتفاع بثواب عمله، وسيبقى لا محالة في أعظم غم، وأكمل حسرة وحيرة، ولا تعارض بين الرأيين، لأن النتيجة واحدة.

(١) التفسير الكبير: ٥٨/١ .

كل إنسان مؤاخذ بعمله:

مثل للكافرين:

يقول الحق سبحانه: ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحِينَ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يَغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاهِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ (التحریم: ١٠).

فهذا مثل ضربه الله للذين كفروا، يبين أن مخالطتهم للمؤمنين لن تنفعهم شيئاً عند الله، ما لم يكن الإيمان حاصلًا، فامرأة نوح وامرأة لوط كانت كل منهما في صحبة زوجها ليلاً ونهاراً، وتؤاكله، وتضاجعه، وتعاشره أشد العشرة والاختلاط، ولكن لم يغن ذلك عنهما شيئاً - لكفرهما - وقضي عليهما بدخول النار فور موت كل واحدة منها.

وخيانتهما كانت في الدين. أي بالكفر، فكما جاء عن ابن عباس أن زوجة نوح - عليه السلام - كانت تتهمه بالجنون، وتخبر الجابرة بمن آمن به، وأن زوجة لوط كانت تخبر قومها بأضيافه، ثم قال: ما بغت امرأة نبي قط، أما كانت خيانتهما في الدين ^(١).

وإنما كانت الفاحشة مستحيلة عليها - مع كفرها - والكفر أكبر من الزنا، لأن كفر المرأة يقع إثمها عليها وحدها، أما زناها، فإنه يلطخ معها أباهها وأخاها وابنها وزوجها، ومحال أن يرضى الله بتلطخ عبد اصطفاه؛ ولذا يقول سبحانه في رمي زوجة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - ﴿وَنَحْسَبُنَهُ هَيْنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ (النور: ١٥).

يقول ابن كثير ^(٢): فعظيم عند الله أن يقال في زوجة نبيه ورسوله ما قيل، فإن الله - سبحانه وتعالى - يغار لهذا - وهو قادر - سبحانه - على منعه بالنسبة لسائر الأنبياء، فكيف يكون هذا في سيدة نساء الأنبياء، وزوجة سيد ولد آدم - على الإطلاق - في الدنيا والآخرة؟

(١) تفسير القرآن العظيم: ٣٩٢/٤.

(٢) المرجع السابق: ٢٧٤/٣.

ولذا ندب الله المؤمنين أن ينزهوا ربهم عن أن يرضى بحدوث مثل ذلك في قوله: ﴿وَلَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا سُبْحَنَكَ هَذَا مُبْتَنًى عَظِيمٌ﴾ (النور: ١٦).

مثل للمؤمنين:

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ^(١) وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ (١١) ومريم ابنت عمران التي أحصنت فرجها فنفخنا فيه من روحنا وصدقت بكلمت ربها وكُتِبَ عَلَيْهَا وَعَظَمَتْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٢) (التحریم: ١١، ١٢).

وهذا مثل ضربه الله المؤمنين: أنهم لن تضربهم مخالطة الكافرين - ماداموا محتاجين إلى ذلك، لقوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقْلَةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ (٢٨) (آل عمران: ٢٨).

فهذه آسية بنت مزاحم - زوجة أعتى أهل الأرض وأكفرهم - لم يضرها كفر زوجها، وأدخلت الجنة فور موتها، ولامرأة فرعون ميرة، حيث إنها اختارت القتل على الملك، فقد قتلها فرعون، وعذاب الدنيا على النعيم الذي كانت فيه، ومريم ابنة عمران مثل - أيضا - للمؤمنين، في أن التحصن والعفاف والتقوى يرفع من قدر المرأة، ويعلي من شأنه في الدنيا والآخرة.

وجاء بحاشية الجمل على الجلالين: إن الله عطف مريم على امرأة فرعون، لأنها من جملة المثل الثاني. فمثل الله حال المؤمنين بامرأتين، كما مثل حال الكافرين بامرأتين.

وفي ﴿فنفخنا فيه من روحنا﴾ أي أودع الله فيه قبسا منه، - وهو الحياة -، أو فنفخنا فيه روحا هي بعض أرواحنا التي خلقناها قبل خلق آدم.

(١) كيف تقول: ابن لي بيتا في الجنة والجنة موجودة قبل خلق الإنسان؟ والجواب: أن الجنة وإن كانت معدة فعلا، إلا أن الله عز وجل ينشئ فيها، ويزيدها بفضله، أو ابن: بمعنى خصص لي. وجاء بالتفسير الكبير: ٥٠/٣٠ : ما معنى الجمع بين عندك وفي الجنة؟ نقول: طلبت القرب من رحمة الله، ثم بينت مكان القرب بقولها: في الجنة. وأرادت: ارتفاع درجاتها في جنة المأوى التي هي أقرب إلى العرش.

وقوله: ﴿وَصَدَقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكِتَابِهِ﴾ أي بالصحف والكتب التي أنزلت على الرسل، ويقرر ابن القيم - عن وجه مثل الكافرين - أن الكافر يعاقب على كفره وعدوانه لله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - وأوليائه، ولا ينفعه مع كفره ما كان بينه وبين المؤمنين من لحمه نسب، أو صلة صهر، أو غيرها من الأنساب. فلونفعت وصلة القرابة أو المصاهرة مع عدم الإيمان لنفعت صلة نوح امرأته وولده، ولنفعت صلة إبراهيم عليه السلام أباه.

ويقرر عن مثل المؤمنين: أن اتصال المؤمن بالكافر لا يضره شيئا إذا خالفه في كفره وعمله، فمعصية العاصي لا تضر المطيع شيئا، إلا ما يكون في الدنيا إذا عمت العقوبة، ثم يقول: إن الله ذكر ثلاثة أصناف من النساء: الكافرة التي لها وصلة بالرجل الصالح، والمرأة الصالحة التي لها وصلة بالرجل الكافر، والمرأة العزبة التي لا وصلة بينها وبين أحد، فالأولى لا تنفعها وصلتها، ولا سببها. والثانية لا تضرها وصلتها أو سببها. والثالثة لا يضرها عدم الوصلة شيئا.

مثل المؤمنين في التوراة والإنجيل:

في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا مَّجْبَدًا يَتَنَفَّوْنَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا^(١) سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَكَازَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا^(٢)﴾ (الفتح: ٢٩).

يرى بعض المفسرين: أن ما ذكر من أوصاف المؤمنين من الشدة على الكفار والتراحم بينهم، ومدامتهم على الصلاة، حتى بدا الوقار، والسمت الحسن على وجوههم من أثر الصلاة: هو ما وصفوا به في التوراة. وأما مثلهم في الإنجيل فكالزراع، ويرى آخرون، أن تشبيههم بالزراع هو ما وصفوا به في التوراة والإنجيل معا. والأوصاف المتقدمة هي بيان لحالهم الآن.

(١) ذكر ابن كثير في تفسيره: ٢٠٤/٤ عن ابن عباس: أن معناه: السمت الحسن، أي الوقار من أثر الصلاة.

فقد جاء في التفسير الكبير ١٠٨/٢٨ : أن ذلك مبتدأ، خبره: مثلهم في التوراة. ومثلهم في الإنجيل، وقوله تعالى: ﴿كَزَعُ أُخْرَجَ شَطْأَهُ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: ومثلهم في التوراة، ومثلهم في الإنجيل كزرع. وجاء بحاشية الجمل: ١٧٢/٤ ، يجوز وجهان؛ الأول: أن ومثلهم مبتدأ، والخبر كزرع. فيوقف على قوله في التوراة. فهما مثلان، وإليه ذهب ابن عباس. الثاني: أنه معطوف على ﴿مثلهم﴾ الأول. فيكون مثلاً واحداً في الكتابين، ويوقف حيثنذ على الإنجيل، وإليه نحا مجاهد، والفراء. ويمكن أن يكون قوله كزرع خبراً لمبتدأ محذوف أي مثلهم كزرع وأن يكون صيغة لمحذوف. أي تمثيلاً كزرع.

وتوضيح المثل: أن الله شبههم بزرع أخرج فراخه فأزره، أي شده، وقواه. فاستغلظ؛ أي شب، وطال. فاستوى على سوقه. أي قام واعتماد على سياقه فأصبح قويا بهيج يسر الزراع، وقد جعلهم الله كذلك ليغبط بقوتهم، وتآزرهم وتماسكهم الكفار ولهم الأجر العظيم عند الله. وإنما مثلهم الله بالزرع؛ لأنه في أول خروجه يكون ضعيفا ويظل ينمو إلى حد الكمال، فكذلك المؤمنون.

كما أن مؤازرة الشطء للأصل تكون على نحو واضح، يدركه الجميع، وكذلك كان المؤمنون في مؤازرتهم لسيد الخلق، ويبقى الأصل أقوى وأعظم من الشطء وكذلك رسول الله - صلى الله عليه وسلم -. والزرع - كذلك - مصدر الخير والبركة، وكذلك المؤمنون.

مثل الحياة الدنيا:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَدِرُونَ عَلَيْهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (يونس: ٢٤).

شبه - سبحانه - الحياة الدنيا في تزينها في عين الناظر، وميله إليها واغتراره بها، حتى إذا ظن أنه مالك لها، قادر عليها، سلبها بغته، مع شديد

حاجته إليها - بالأرض التي نزل عليها الغيث، فتعشب، ويحسن نباتها، وتسرع الناظر إليها، فيغتر بها، ويظن أنه مالك لها، فيأتيها أمر الله، فتدرك نباتها الآفة بغتة، فتصبح كأن لم تكن، فيخيب ظنه، ويظل كاسف البال.

ويقول ابن القيم - رحمه الله - وهذا من أبلغ التشبيه والقياس، ولما كانت هذه الدنيا عرضة لهذه الآفات، والجنة سليمة منها، دعانا الله إلى ديار السلام في الآية التالية لها، في قوله: ﴿وَالله يدعوك إلى دار السلام﴾ (يونس: ٢٥). فسمّاها دار السلام، لسلامتها من هذه الآفات التي ذكرها في الدنيا.

وذكر الإمام الرازي أن وجه الترغيب في الدار الآخرة ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم: ﴿مثلي ومثلكم: شبه سيد بني دارا، ووضع مائدة، وأرسل داعيا، فمن أجاب الداعي دخل الدار، وأكل من المائدة، ورضي عنه السيد. ومن لم يجب لم يدخل، ولم يأكل، ولم يرض عنه السيد. فالله السيد، والدار دار السلام، والمائدة الجنة، والداعي محمد عليه السلام﴾.

وقوله تعالى: ﴿فاختلط به نبات الأرض﴾ يحتمل وجهين:

الأول: الباء في به للسببية. أي بسبب هذا الماء، وذلك لأنه إذا نزل المطر نبت بسببه أنواع مختلطة من النبات.

الثاني: أن ينزل المطر على نبات صغير، لم يترعرع، ولم يهتز، ولكنه في أول بروزه من الأرض، فإذا أنزل المطر عليه، واختلط به - أي اتصل كل واحد منها بالآخر - اهتز ذلك النبات، وربا، وحسن.

وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَتَزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ^(١) نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾﴾ (الكهف: ٤٥).

(١) سميت الجنة بدار السلام ؛ لأن السلام هو الله تعالى. والجنة داره، أو لأنها الدار التي يسلم داخلها من الآفات، أو لأن الله يسلم على أهلها: ﴿وتحييتهم يوم يلقونه سلام﴾ (الأحزاب ٤٤) والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم ﴿(الرعد ٢٤) ، ويحيي بعضهم بعضا بالسلام: ﴿وتحييتهم فيها سلام﴾ (يونس ١٠) (التفسير الكبير ١٧/٧٤). وفي تفسير الجلالين: (فاختلط به) : تكاثف - بسبب نزول الماء - نبات الأرض، أو امتزج الماء بالنبات، فروي وحسن.

فهذا مثل آخر يدل على حقارة الدنيا، وقلة بقائها، فقد شبهها الله بماء نزل من السماء، فاختلط بالنبات، واختلط به النبات، وعندئذ يربو هذا النبات، ويهتز، ويتشابك بعضه ببعض، فيبدو في منظر بهيج، مصداقا لقوله تعالى عن الأرض: ﴿ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٥﴾ (الحج: ٥). ثم انقطع الماء مدة. جف ذلك النبات، وصار نباتا متكسرا، تطيره الرياح، وتذهب به في كل اتجاه، وكذلك الدنيا تعطي الإنسان، وتزهو له، ويجمع فيها مختلف الأموال، ثم تذهب تلك الأموال بعد فترة من الزمن طالت أو قصرت، وكذلك الإنسان في الدنيا، يبدأ عودا طريا، ثم يختلط بالماء، وما يخرج عنه، فيشتد عوده فترة من الزمن، ثم يبدأ في الاضمحلال، ثم يكون أجله.

وكان الله على كل شيء مقتدرا، أي قادرا على تكوينه أولا، وتنميته وسطا، وإفناؤه آخرا. وكذلك الدنيا، تظهر أولا في غاية الحسن والنضارة، ثم تتزايد قليلا قليلا، ثم تأخذ في الانحطاط، إلى أن تنتهي إلى الهلاك والفناء.

ومثل ذلك - أيضا - قوله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنْبِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَنُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطْلًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝٢١﴾ (الزمر: ٢١).

وقوله تعالى: ﴿ أَعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطْلًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعٌ ۝٢٠﴾ (الحديد: ٢٠).

فالله سبحانه وتعالى يحقر لعباده أمور الدنيا والعمل فيها، إذا لم يكن تقدمه للآخرة، وذلك ببيان أنها أمور خيالية، قليلة النفع، سريعة الزوال، لأنها لعب، يتعب الناس فيه أنفسهم، كتعب الصبيان في الملاعب، من غير فائدة، ولهو يلهون به أنفسهم، وزينة كالملابس الحسنة، والمراكب البهية، والمنازل الرفيعة، وتفاخر بالأنساب، وتكاثر بالعدد والعدد، ثم قرر ذلك

بتشبيهها بالغيث الذي أنبتت النبات الحسن فأعجب به الزراع، ثم هاج. أي
يبس واصفر، فأصبح فتاتا يضمحل. أي يتناثر، ويزول بفعل الرياح.

ثم لفت الله نظر عباده إلى ما يكون في الآخرة من عقاب وثواب،
وأكد أن الدنيا متاع مآله إلى الزوال. فهي غرور، لا حقيقة لها.

أعمال المؤمنين:

مضاعفة أجر المؤمن:

في قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ
سَبْعَ سَنَابِلٍ فِي كُلِّ سُنْبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَسِعَ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾
(البقرة: ٢٦١).

فقد شبه الله نفقة المنفق في سبيل الله بمن بذر بذرا، فأنبتت كل حبة
سبع سنابل، اشتملت كل سنبل على مائة حبة، والله يضاعف الجزاء بحسب
حال المنفق من الإيمان والإخلاص، وثبات النفس بانسراح الصدر بذلك،
لتمام الرضا، وخروج الصدقة من القلب قبل خروجها من اليد، فمن كان
كذلك أخذ الحظ الأول من الثواب. وينقص الثواب بمقدار ما نقص من هذه
الأمور.

وجاء في التفسير الكبير: قال القاضي رحمه الله: إنه تعالى لما أجمل
في قوله: ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفُهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ
يَقْبِضُ وَيَبْصُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾ (البقرة: ٢٤٥).

فصل في هذه الآية تلك الأضعاف - بعد ذكر الأدلة على قدرته على
الإحياء والإماتة، فلولا ذلك لما يحسن التكليف بالإنفاق؛ لأنه لولا وجود
الإله المثير المعاقب، لكان الإنفاق في سائر الطاعات عبثا، فكأنه تعالى قد
قال لمن رغبه في الإنفاق، قد عرفت نعمتي عليك، وقدرتي على الإحياء
والمجازاة، فليكن ذلك داعيا لك على إنفاق المال.

والآية الكريمة أيضا مثل حي مشاهد على عظيم قدرة الله، فمن نظر

إلى حبة قد أنبتت سبعة عيدان بسبع سنابل، في كل سنبله مائة حبة، وقر في نفسه عظيم قدرة الله على مضاعفة الجزاء إلى سبعمائة ضعف.

ويقوى الرازي: فإن قيل: فهل رأيت سنبله فيها مائة حبة حتى يضرب الله المثل بها؟ كان الجواب، أن المقصود من الآية: أنه لو علم إنسان يطلب الزيادة والربح أنه إذا بذر حبة واحدة أخرجت له سبعمائة حبة، ما كان ينبغي له ترك ذلك، ولا التقصير فيه، فكذلك ينبغي لمن طلب الأجر في الآخرة عند الله، ألا يتركه إذا علم أنه يحصل له على الواحدة عشرة، ومائة، وسبعمائة.

وإذا كان هذا المعنى معقولا سواء وجد في الدنيا سنبله بهذه الصفة أو لم يوجد، كان المعنى حاصلًا مستقيما. وهذا قول القفال - رحمه الله - وهو حسن جدا.

وقد ختم الله الآية بما يؤكد قدرته سبحانه على مضاعفة الثواب، بأنه سبحانه واسع الملك والفضل، عليم بما يصلح خلقه، وبمدى إخلاص المخلص منهم.

ومن ذلك أيضا، قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَفَاتَتْ أَكْلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطُلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (البقرة: ٢٦٥).

فلما ذكر الله تعالى مثل المنفق المنان المؤذي ذكر مثل المنفق المخلص، وشبه إنفاقهم بجنة على أرض مرتفعة، لأن ذلك من مدعاة حسن الثمر، وجودة الإنتاج، وهذه الجنة أصابها المطر الكثير، فأتت إنتاجا مضاعفا، أو أصابها مطر خفيف، فلم ينقص شيئا من إنتاجها، لطيب منبتها، أو أعطيت ثمرا دون ثمر الوابل، والله بصير بالنوايا والأعمال، فيجازي كلا حسب نيته.

وقوله تعالى: ﴿ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ﴾ أي طلب لمرضاة الله الذي أصبح ملكة مستقرة في النفس، وذلك بسبب أن تلك العبادة صارت

كالعادة والخلق للروح ، ولأنهم ينفقونها جازمين بأن الله لن يضيع ثوابهم ، وكذلك فإن المنفق يثبت في وضع الصدقة ، فيضعها فيما فيه مرضاة لله .

ويقرر ابن القيم - رحمه الله - أن ثواب الإنفاق قد يتفاوت بحسب ما يقوم بالقلب من الإيمان والإخلاص والتثبت عند النفقة ، وهو إخراج المال بقلب ثابت ، وقد انشرح صدره ، وسمحت به نفسه ، وخرج من قلبه قبل خروجه من يده ، ويتفاوت - كذلك - بحسب نفع الإنفاق ومصارفه ويقرر - كذلك - أنه سبحانه شبه الإنفاق بالبذر ، فالمنفق ماله الطيب لله لا لغيره ، باذر ماله في أرض زكية ، مغلة ، بحسب بذره وطيب أرضه ، وتعاهد البذر بالسقي والتطهير من الشوائب ، فإذا اجتمعت هذه الأمور ولم تحرق الزرع نار ، ولا لحقته جائحة ، جاء أمثال الجبال . وكان مثله كمثّل جنة بمكان مرتفع ، مكشوف للشمس والريح ، فترى الأشجار هناك أتم تربية ، فإذا رواها مطر عظيم القطر نمت واتت أكلها ضعفي ما تؤتيه غيرها ، وإن أصابها مطر خفيف فإنه يكفيها لكرم منبتها .

ويقول : إن في ذكر نوعي الوابل والطل إشارة إلى نوعي الإنفاق ؛ الكثير والقليل .

قيام آكل الربا كقيام الممسوس :

في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا ﴾ (البقرة : ٢٧٥) .

مثل الله عز وجل قيام آكل الربا من القبر يوم النشور أو يوم القيامة - في تخبطه وعدم اهتدائه - بالمجنون الذي مسه الشيطان .

والتخبط معناه المشي على غير استواء ، ويقال للرجل الذي يتصرف في أمر ولا يهتدي فيه : إنه تخبط خبط عشواء ، وتسمي إصابة الشيطان بالجنون والخبل : حنطة ، لأن الشيطان يتخبطه ، ويطؤه برجله ، فيخبله . المس :

الجنون، ويقال: مس الرجل فهو ممسوس، به مس، وأصله من المس باليد، كأن الشيطان يمس الإنسان فيجنه.

فالتخبط بالرجل، والمس باليد.

وجاء في التفسير الكبير: ٨٩/٧: إن من العلماء من يرى أن أكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً، وذلك كالعلامة المخصوصة بأكل الربا، فيعرفه أهل الموقف بتلك العلامة، فهم يقومون مجانين؛ كمن أصابه الشيطان بجنون.

وهناك من يرى أنه إذا بعث الناس من قبورهم خرجوا مسرعين إلا أكل الربا، فإنهم يقومون ويسقطون كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس.

والرأي الثالث: أن الشيطان يدعو إلى طلب اللذات والشهوات والاشتغال بغير الله، فهذا هو المراد من مس الشيطان، وأكل الربا مفرط في حب الدنيا، متهالك فيها، فإذا مات على ذلك الحب صار ذلك الحب حجاباً بينه وبين الله، فالتخبط الذي كان حاصلًا في الدنيا بسبب حب المال أورثه الخبط في الآخرة وأوقعه في ذل الحجاب.

والذي أراه بأن المرابي يتخبط في حياته - أيضاً، وذلك الذي أوقعه في أكل الربا حبه الشديد للمال الذي أورثه الجشع وحرمة القناعة، فهو في قلق دائم؛ إن لم يربح لم يهدأ، لأن نفسه متشوقة إلى ما هو أكثر، فهي لا تشبع أبداً لأنها اتخذت من المال هدفاً؛ مصداقاً لقوله - صلى الله عليه وسلم -: ﴿نهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال﴾ وإن خسرت جزعت.

ومثل هذا الذي يستمرىء الحرام عصياناً لربه، يفتقد وثوقه في الله، وارتكابه إلى ما عند الله، ولذلك في الحاليين غير صابر وغير شاکر.

وإن رؤية المتعاملين في البورصة واضطراب حركتهم وإشاراتهم وما يصدر عن بعضهم أحياناً لخير شاهد على ما أقول؛ فمنهم من يخنق نفسه برباط العنق، ومنهم الذي ضرب مدير البنك، ومدير البورصة بالرصاص، ثم ثلث بنفسه.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا: إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ أي غالوا في المخالفة والعصيان، حيث جعلوا الحرام هو الأصل، والحلال مشبه به. فهم يقولون: إن من اشترى ثوبا بعشرة ثم باعه لأخيه بأحد عشر، فهو كمن باع أخاه عشرة دراهم بأحد عشرة، أو أقرضه عشرة واستردها أحد عشر.

وتلك قمة المغالطة، فقد نسوا أو تناسوا الفرق بين البيع والربا، فالأول فيه مجهود بالبحث عن السلعة وجلبها، ومغامرة في تعرضها للتلف، أو الضياع، أو في كساد سوقها، والخسارة فيها، وفي السلعة نفع للمشتري، ونمو، وزيادة سعر، وليس في الربا شيء من ذلك، فلا مجهود ولا مخاطرة، وليس هناك سلعة ينتفع بها، أو تنمو، أو يزيد سعرها. فأين هذا من ذاك؟

إبطال أجر الصدقة باليمن والأذى. في قوله تعالى:

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتَكُمْ بِالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَنُفِلَ عَنْهُ كَمِثْلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ رُبَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦٤﴾﴾ (البقرة: ٢٦٤).

يقول الإمام الرازي ^(١): اعلم أنه تعالى ذكر لكيفية إبطال أجر الصدقة باليمن والأذى مثلين: فمثله أولا بمن ينفق ماله رثاء الناس وهو كافر؛ لأن بطلان أجر نفقه هذا المرأى الكافر أظهر من بطلان أجر صدقة من يتبعها اليمن والأذى.

ثم مثله ثانيا بالصفوان - الحجر الأملس - الذي وقع عليه تراب وغبار، ثم أصابه المطر القوي فأزال ذلك الغبار حتى صار كأن لم يكن عليه غبار ولا تراب أصلا؛ فالكافر كالصفوان، والتراب مثل ذلك الإنفاق، والوابل كالكفر الذي يحبط عمل الكافر، وكاليمن والأذى اللذين يحبطان عمل هذا المنفق.

﴿لَا تَبْطُلُوا﴾ يحتمل أمرين:

(١) التفسير الكبير ٤٩/٧.

أحدهما: لا تأتوا بها باطلة، كأن ينوي بالصدقة الرياء والسمعة، فتكون باطلة حين وجدت.

ثانيهما: أن يؤتي بها على وجه الثواب، ثم إذا أتبع بالمن والأذى صار عقاب المن والأذى مزيلا لثواب تلك الصدقة.

ويقول ابن عباس - رضي الله عنهما - : لا تبطلوا صدقاتكم بالمن على الله بسبب صدقتكم، بالأذى لذلك السائل.

وقال الباقر: بالمن على الفقير، وبالأذى للفقير.

وقول ابن عباس - رضي الله عنهما - محتمل؛ لأن الإنسان إذا أنفق متبجحا بفعله، غير متواضع، ولا معترف بفضل الله وتوفيقه - كان كالمان على الله.

يقول الرازي: واعلم أن هذا مثل ضربه الله تعالى لعمل المان المؤذي، ولعمل المنافق، فإن الناس يرون في الظاهر أن لهؤلاء أعمالا، لا يرى التراب على الصوفان، فإذا كان يوم القيامة اضمحل كله، وبطل، لأنه تبين أن تلك الأعمال ما كانت لله تعالى، كما أذهب الوابل ما كان على الصفوان من تراب.

وذكر القفال وجها آخر في الشبيه، وهو أن أعمال العباد ذخائر لهم يوم القيامة، فمن عمل بإخلاص فكأنه طرح بذرا في أرض، فهو يضاعف له، وينمو حتى يحصده في وقت حاجته، والصفوان محل بذر المنافق، ومعلوم أنه لا ينمو فيه شيء، ولا يكون فيه قبول للبذر.

والمعنى: أن عمل المان والمؤذي والمنافق يشبه الذي طرح بذرا في صفوان صلد عليه غبار قليل، فإذا أصابه مطر جود بقي خاليا لا شيء فيه.

﴿لا يقدرن على شيء مما كسبوا﴾، لا يقدرن على الاستفادة من أعمالهم في الدار الآخرة، كما لا يقدر أحد على الاستفادة بشيء من البذور التي كانت ملقاة في التراب الذي كان على الحجر الأملس، بعدما أزال المطر كل شيء عليه.

بقاء عمل المؤمن وانهايار عمل المنافق :

في قوله تعالى: ﴿أَفَنَنْتَ أُسْءَلُ بِبُنْيَانِهِ عَلَى تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٍ أَمْ مَنْ أُسْءَلُ بِبُنْيَانِهِ عَلَىٰ شَفَا جُرْفٍ هَارٍ فَأَنْهَارُ بِهِ فِي نَارٍ جَهَنَّمَ﴾ (التوبة: ١٠٩).

والمعنى، أن كل ما بدىء على الإيمان بالله بنية تقوى الله والإخلاص له، فإنه يدوم ويبقى، فيسعد به صاحبه، وكل ما بدىء على النفاق، فإنه يهلك بصاحبه.

وهذه الآية - كما يقول القرطبي في تفسيره -: ضرب مثل لهم. أي من أسس بنيانه على الإسلام خير أم من أسس بنيانه على الشرك والنفاق؟ فبناء المؤمن على أرض صلبة، لذا فهو باق، ينتفع به صاحبه، وبناء الكافر والمنافق على حافة ما تجترفه السيول من الأودية، فهو هاو، لا يثبت عليه بناء، بل يسقط بصاحبه فيرديه.

والآية الكريمة تتحدث عن مسجد الضرار الذي بناه المنافقون بإشارة أبي عامر الفاسق ودعمه، وكان قد فر إلى مكة كافرا، ثم إلى ملك الروم ليغريه بالقضاء على محمد - صلى الله عليه وسلم - ودعوته، وقد قصد بهذا المسجد أن يكون رصدا لأبي عامر يتوارى فيه من يأتي من جهته بالدسائس والأسلحة التي مدهم بها ملك الروم بغية القضاء على الدعوة وصاحبها، وقد طلبوا من الرسول - صلى الله عليه وسلم - أن يصلي لهم فيه، فوعدهم بذلك بعد أن يعود من تبوك، ولكن الله أخبره بأمر هذا المسجد فأرسل صلى الله عليه وسلم من أحرقه، يقول سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضَرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ (التوبة: ١٠٧، ١٠٨).

وهذا وإن كان خاصا بهذه الحادثة، إلا أنه عام في كل أعمال المنافقين، ويعلمنا الله سبحانه أن هذا البناء سيظل مصدر ريبة وشك في قلوب من بنوه إلى أن تتصدع قلوبهم بالموت، في قوله تعالى: ﴿لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمْ

الَّذِي بَنَوْا رِبِيَّةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ ﴿التوبة : ١١٠﴾
 فينعدم أحساسهم، فهم مصرون على النفاق مدة حياتهم.

أعمال الكفار كرماد اشتدت به الريح :

في قوله تعالى : ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ ﴿١٨﴾﴾
 (إبراهيم : ١٨)، هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح فانهارت، وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقد مثل الله ثواب أعمالهم - من بر وصلة رحم واختراعات واكتشافات تخدم البشرية - يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى؛ لأنهم كانوا يحسبون أنهم على شيء، فلا يجدون شيئاً، ولا ألفوا حاصلها، إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة، فلا يقدرُونَ على تحصيل شيء مما كسبوا في الدنيا: يقول سبحانه: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾﴾ (الفرقان : ٢٣).

كصفوان عليه تراب أصابه وابل :

وكما ذكر آنفاً من أنالذي ينفق ماله رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فمثل عمله كحجر أملس عليه تراب نزل عليه وابل من المطر أزال كل ما عليه من تراب، وما معها من بذور، فتركه صليداً ممسوحاً، ليس عليه شيء، فكما لا يقدر الباذر أن يمسك بشيء من التراب الذي أزاله المطر الشديد بما فيه من بذور، فكذلك الكافر لا يقدر على الاستفادة بشيء من ثواب الأعمال التي عملها، لأن كفره بالله أحبطها فلا ثواب لها. كالسراب.

في قوله تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾﴾
 (النور : ٣٩).

يقرر ابن القيم رحمه الله: أن الله سبحانه قد ضرب لأعمال الكافرين -

في هذه الآية والتي تليها - مثلين: أحدهما بالسراب، والآخر بالظلمات، وذلك لأن المعرضين عن الحق والهدى فريقان:

أحدهما: من يظن أنه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنه، وهذه حال أصحاب الملل الأخرى، وأهل الجهل، وأهل البدع والأهواء الذين يظنون أنهم على هدى وعلم، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتب عليها كانت كسراب يرى في أعين الناظرين ماء وهو لا حقيقة له.

والفريق الثاني: وهم الذين عرفوا الحق والهدى، وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال، فحالهم يوم القيامة كحال من هو في بحر متلاطم الأمواج، لاساحل له، وقد غشيته أمواج تراكم بعضها فوق بعض، فهو في ذعر وهلع وضياح وهلاك محقق.

وتوضيح المثل الأول، أن الله سبحانه شبه أعمال أهل الضلال والكفر يوم القيامة بالسراب الذي يراه الظمآن في الأرض المستوية الخالية من الزروع والأبنية كأنه ماء، ولا حقيقة له وهكذا أعمالهم التي لغير الله - عز وجل - وعلى غير أمره، يحسبها العامل نافعة له، وليست كذلك، مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِن عَمَلٍ فجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا﴾ (الفرقان: ٢٣).

ويقول ابن القيم: وتأمل جعل الله سبحانه السحاب بالقيعة، وهي الأرض الخالية، والسراب لا حقيقة له. وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى وتأمل ما تحت قوله ﴿يحسبه الظمآن ماء﴾ والظمآن الذي اشتد عطشه فرأى السراب فظنه ماء، فتبعه فلم يجد شيئا بل خانه وهو أحوج ما كان إليه، فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم مخالفة لأوامر الله ورسوله، بل هي لغير الله، جعلت كالسراب، فرفعت لهم أظما ما كانوا إليها، فلم يجدوا شيئا، ووجدوا الحق - سبحانه - حيث يكون الحساب والعقاب.

وفي الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديث التجلي يوم القيامة. ﴿ثم يؤتي بجهنم تعرض

كأنها السراب، فيقال لليهود: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد عزيزا ابن الله. فيقال: كذبتُم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ قالوا: نريد أن تسقينا، فيقال لهم: اشربوا. فيتساقطون في جهنم. ثم يقال للنصارى: ما كنتم تعبدون؟ فيقولون: كنا نعبد المسيح ابن الله، فيقال: كذبتُم، لم يكن لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟ فيقولون: أن تسقينا، فيقال لهم: اشربوا فيتساقطون. ﴿٤٠﴾

وفي قوله تعالى: ﴿ووجد الله عنده فوفاه حسابه﴾ ما يضاعف من نكال هذا الكافر، ويزيد من حسرته وألمه، فقد جاءه الهلاك والعذاب من حيث يؤمل الخير ويتنظره.

كظلمات في بحر واسع:

في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لَّجِيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكْدِ يَرْنَهَا وَمَنْ لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور: ٤٠).

فقد مثل الله الفريق الثاني، وهم الذين عرفوا الحق، وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال، وظلمة الطبع، وظلمة النفوس، وظلمة الجهل - حيث إنهم لم يعملوا بعلمهم، فهم كمن لا يعلم - وظلمة اتباع الغي والهوى، بحال من كان في بحر لجي لا ساحل له، وقد غشيه موج، يعلوه موج، ومن فوقه سحب مظلم، فهو في ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السحاب.

وجاء بحاشية الجمل^(١): إن البحر اللجي يكون قعره مظلمًا جدا بسبب غموره الماء، فإذا ترادفت الأمواج وركب بعضها بعضا ازدادت الظلمة، فإن كان فوق الأمواج سحب بلغت الظلمة النهاية القصوى، ووجه الشبه: أن الله عز وجل ذكر ثلاثة أنواع من الظلمات؛ ظلمة البحر وظلمة الأمواج وظلمة السحاب.

(١) الفتوحات الإلهية: ٣٢٠/٣ بتصرف.

وكذلك الكافر له ثلاث ظلمات: ظلمة الاعتقاد، وظلمة القول، وظلمة العمل.

وجاء في التفسير الكبير^(١): أن لفظة ﴿أَوْ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَظَلَمَاتٍ﴾ لها وجوه.

أحدها: أن الله تعالى بين أن أعمال الكفار إن حسنة - كالبر والصلة والعلم المفيد - فمثلها السراب.

وإن كانت قبيحة - المعاصي والعلوم الضارة فهي الظلمات.

ثانيها: أن تقدير الكلام أن أعمالهم إما كسرات بقية، وذلك في الآخرة، وإما كظلمات في بحر، وذلك في الدنيا.

ثالثها: أن الآية الأولى في ذكر أعمالهم، وأنهم لا يتحصلون منها على شيء. والآية الثانية في ذكر عقائدهم، فإنها تشبه الظلمات.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نوراَ فَمَا لَهُ مِنْ نَورٍ﴾ أي من لم يكتب الله له هداية فليس بمهتد، فالكافرون لهم وسائل الإدراك التي للمؤمنين، ومع ذلك فهم: صم، بكم، عمي، لا يفقهون.

وكذلك من لم يتم الله نوره يوم القيامة ليجوز الصراط، فلن يكون هناك من يعطيه ما حرمه الله.

كزرع أصابته ريح فيها صر:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ ﴿١١٦﴾ مَثَلُ مَا يُنْفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ ﴿١١٧﴾ (آل عمران: ١١٦، ١١٧).

جاء بالجامع لأحكام القرآن: ١٧٧/٤ عن ابن عباس: أن الصر هو البرد الشديد، قيل: أصله من الصرير الذي هو الصوت، فهو صوت الريح الشديد.

(١) للرازي: ٨/٢٤.

ويرى الزجاج أنه صوت لهب النار التي تكون في تلك الرياح .
والمعنى : مثل نفقة الكافر في بطلانها وذهابها وعدم منفعتها كمثل زرع
أصابه ريح باردة أو نار فأحرقتة وأهلكته فلم ينتفع أصحابه بشيء منه بعدما
كانوا يرجون فائدته ونفعه .

وجاء في البحر المحيط ٣/٣٧ من أقوال العلماء ما يجعل ذلك شاملا
لإنفاق الكافر والمنافق واليهودي ، وأن هذا من التشبيه المركب الذي لم يقابل
فيه الأفراد بالأفراد ، وهو نظير قوله تعالى : ﴿مثلهم كمثل الذي استوقد
نارا﴾ ، وقوله : ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق﴾ .

وقيل : وقع التشبيه بين شيئين وشيئين ، ذكر أحد المشبهين وترك ذكر
الآخر ، ثم ذكر أحد الشيين المشبه بهما ، وليس الذي يوازن المذكور الأول وترك
ذكر الآخر ، ودل المذكوران على المتروكين ، وهذا اختيار ابن عطية^(١) . قال :
وهذه غاية البلاغة والإعجاز ، مثل ﴿ومثل الذين كفروا كمثل الذي ينعق﴾ .

وتقريب ذلك : أن التشبيه وقع بين إنفاق يعدونه قرية قد حبط يوم
القيامة ، وصار هباء . وبين زرع نبت ، وأخضر ، وقوي الأمل فيه ، قد هبت
عليه ريح صر فأهلكته .

فحذف من الأول الثاني ، وهو : ضياع الأجر يوم القيامة ، وحذف من
الثاني الأول ، وهو : الزرع المخضر .

وقوله تعالى : ﴿وما ظلمهم الله﴾ . أي ما ظلمهم بضياع أعمالهم
الخيرة ، ولكنهم هم الذين ظلموا أنفسهم بكفرهم بربهم ، حيث جحدوه ،
وابتغوا بأعمالهم غيره ، فهم لم يقصدون بها عبادة الله ومرضاته ، وإنما أنفقوا
في المعصية ولغير الله .

(١) عبدالحق بن غالب بن عبد الرحمن ، المحاربي ، مفسر ، فاص ، عالم بالأحكام والأحاديث . ت
٥٤٢ هـ (معجم المفسرين : ١/٢٥٧) .

الفصل الثالث

من الأمثال السائرة في القرآن الكريم

سبق القول: بأن ضرب الأمثال بالقرآن جائز، لشديد حاجة المؤمن إلى ذلك. وأن أمثال القرآن منها ما هو كامن، لم يرد ذكر للمثل فيه، وهو ما يعرف بالمثل السائر. وهو ضربان.

الأمثال السائرة ضربان:

أ - ماله نظير من أمثال العرب والعجم.

ب ما جرى مجرى المثل.

الأول: وهو ما له نظير في المأثور من الأمثال، أدبية كانت أم شعبية:

ما استنبطه ابن الفضل:

ذكر السيوطي في الإتقان، أنه قد قيل للحسن بن الفضل: إنك تخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فهل تجد في كتاب الله أمثلة لما يأتي:

(١) خير الأمور أوسطها، أواخر الأمور الوسط، قال أجده في أربعة مواضع، قوله تعالى: ﴿لَا فَاْرِضْ وَلَا يَكْرَهُواْ بَيْنَ ذَلِكَ﴾ (البقرة: ٦٨).

وقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ (الإسراء: ٢٩).

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).

(٢) ﴿من جهل شيئا عاداه﴾ أو ﴿الناس أعداء ما جهلوا﴾.

قال في موضعين:

في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِطُوا بِعَلَمِهِ ۚ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾
(يونس: ٣٩).

وقوله: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ۚ فَسَقَوْا هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ (الأحقاق: ١١).

(٢) ﴿احْذَرِ شَرِّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ﴾ أو ﴿اتَّقِ الشَّرَّ﴾.

قال: في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوا إِلَّا أَنْ أَغْنَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ﴾^(١) مِنْ فَضْلِهِ (التوبة: ٧٤).

وجاء في الجامع لأحكام القرآن^(٢): قال القشيري أبو نصر: قيل للجبلي^(٣): أتجد في كتاب الله تعالى: ﴿اتَّقِ شَرِّ مَنْ أَحْسَنَتْ إِلَيْهِ﴾؟ قال: نعم، وذكر الآية.

(٤) ﴿لَيْسَ الْخَبْرُ كَالْعِيَانِ﴾:

قال: في قوله تعالى: ﴿قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ قَال بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قُلُوبِي﴾^(٤) (البقرة: ٢٦٠).

(٥) في الحركات البركات، أو في الحركة بركة:

قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرْتَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً﴾ (النساء: ١٠٠).

(١) (الغنائم وتحمل الديات: قال الشعبي: كانوا يطلبون دية فيقضي لهم بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاستغنوا). تفسير القرطبي: ٢٠٨/٨.

(٢) للقرطبي: ٢٠٨/٨ ، والقشيري هو: عبدالرحيم بن عبدالكريم بن هوازن، النيسابوري، ت ٥١٤هـ (طبقات المفسرين للسيوطي ٦٥).

(٣) الجبلي: هو يحيى بن المهلب، أبو كدينة، الكوفي، روى له البخاري وغيره، له تفسير، ت ٢٠٨هـ (طبقات المفسرين للدوادري: ٣٧٦/٢ ، ومعجم المفسرين، ٧٣٧).

(٤) ليسكن عن الجولان والتخيل. وقد أكد - صلى الله عليه وسلم - عدم شك إبراهيم عليه السلام بقوله: ﴿نحن أولى بالشك من إبراهيم﴾.

أي إذا لم نشك نحن فإبراهيم أولى ألا يشك، أو يطمئن قلبه، بأنه خليل الرحمن، أنظر فتح الباري: ٤٧٤/٦ - كتاب أحاديث الأنبياء.

(٦) كما تدين تدان :

قوله تعالى : ﴿ مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ ۖ ﴾ (النساء : ١٢٣) .

(٧) لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين^(١) ، وكيف أعاودك وهذا أثر فاسك^(٢) :

قوله تعالى : ﴿ قَالَ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا ءَامَنُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ (يوسف : ٦٤) .

(٨) من أعان ظالما سلط عليه :

قوله تعالى : ﴿ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ۝٤ ﴾ (الحج : ٤) .

وكذلك قوله سبحانه : ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُؤَيِّنُ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ۝١٢٩ ﴾ (الأنعام : ١٢٩) .

(٩) لا تلد الحية إلا الحية :

قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فِجْرًا كَفَّارًا ۝٢٧ ﴾^(٣) (نوح : ٢٧) .

(١٠) الحلال لا يأتيك إلا قوتا ، والحرام لا يأتيك إلا جزافا :

قوله تعالى : ﴿ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ ۝١٦٣ ﴾^(٤) (الأعراف : ١٦٣) .

(١) قائله : الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد سبق الحديث عنه ص ١٣ .

(٢) أصل هذا المثل : أن حية قتلت رجلا ، فجاء أخوه بواديها ، فتعاقدت معه على أن يعيشا معا في أمان ، وينسى ثأر أخيه ، ولكنه غدر بها ، وضربها بالفأس ، فأخطأها ، وأصاب جحرها ، ثم عاد ليجدد العهد فلم توأخه ، وقالت له ذلك ، فهو مثل يضرب لمن يغدر ، ثم يطلب معاودة العهد . (مجمع الأمثال للميداني) .

(٣) دعوة نوح عليه السلام على قومه ، لشدة إصرارهم على الكفر ، والآية التي قبل هذه : ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَبِّ لَا تَذَرْنِي عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دِيَارًا إِنَّكَ إِن تَذَرْنِي يَظْلُمُونَ عِبَادَكَ ۝١٢٩ ﴾ (يوسف : ١٢٩) .

(٤) العصاة من أهل قرية أيلة ، الذين مسخ الله الشباب منهم قردة ، والشيوخ خنازير ، ففي يوم السبت - وقد حرم عليهم العمل - تأتيتهم الأسماك ظاهرة ، سهلة الاصطياد ، وفي غير السبت تختفي ، ابتلاء من الله لهم ، لفسقهم وعصيانهم .

(١١) لا أكلمك حتى يبيض القار، أو يشيب الغراب:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾ (الأعراف: ٤٠).

ومن ذلك أيضا:

(١) الحمية رأس الدواء:

في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا﴾ (الأعراف: ٣١).

(٢) آخر الحياة الموت، أو كلها عيشة، وآخرها موت:

قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٧٥).

﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٨٨).

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ ﴿وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (الرحمن: ٢٦، ٢٧).

(٣) إذا اشتد الكرب هان، وقول الإمام البوصيري^(١):

اشتدي أزمة تنفرجي قد أذن ليليك بالبلج

وكما أنشد جعفر بن شمس الخلافة في كتاب الآداب لإبراهيم بن عباس الصولي: (٢).

ولرب نازلة يضيق بها الفتى ذرعا وعند الله منها المخرج

(١) البيت من قصيدة تسمى المنفرجة، والبلج: الصبح، والبوصيري، هو هبة الله بن علي بن مسعود الأنصاري، الخزرجي، المصري، الأديب الكاتب ت ٥٩٨ هـ (وفيات الأعيان: ٦/٦٧).

(٢) كان من الشعراء المجيدين ت ٢٤٣ وبعد هذا البيت:

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكأن يظنها لا تفرج (وفيات الأعيان: ١/٤٤).

قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۖ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ (الشرح: ٦٥).
وقد أكد صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: ﴿إنه لن يغلب عسر يسرين﴾^(١)

ويقول بن عباس^(٢): يقول الله تعالى: خلقت عسرا واحدا، وخلقت يسرين، ولن يغلب عسر يسرين.

وإنما كان هناك يسران وعسر واحد في الآيتين، لأن المعروف بأل إذا كررت فالمراد شخص واحد، وأما النكرة فإن تكرارها يدل على أن الثاني غير الأول، فقولك: لقيت الرجل، وكلمت الرجل، يدل على أنه شخص واحد، وأما قولك: لقيت رجلا، وكلمت رجلا، فيدل على أن الثاني غير الأول.

وقوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (الطلاق: ٧).

(٤) كل واحد معلقا من عرقوبه:

قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَبْعُهُ فِي عُنُقِهِ﴾ (الإسراء: ١٣).

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر: ٣٨).

(٥) إن غدا لناظره قريب:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ (هود: ٨١).

(٦) اسأل مجرب، ولا تسأل حكيم، على الخبر وقعت، عند جهينة الخبر اليقين:^(٣)

قوله تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ (فاطر: ١٤).

(١) موطأ الامام مالك - جهاد ٦

(٢) الجامع لأحكام القرآن: ٢، ١٠٧، ولعله قصد القول بلسان الحال.

(٣) يضرب في معرفة الشيء حقيقة، قاله جهينة، وكان عنده خبر رجل مقتول، وهو عجز بيت من الشعر وصدده: تسائل عن حصين كل ركب.

وقوله: ﴿الرَّحْمَنُ فَسْئَلُ بِهِ خَيْرًا﴾ (٥٩) ﴿الفرقان: ٥٩﴾.

وقوله: ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ﴾ (٢٢) ﴿النمل: ٢٢﴾.

(٧) من حفر لأخيه حفرة وقع فيها:

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ (فاطر: ٤٣).

وقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَلِهَا﴾ (الأنعام: ١٦٠).

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾ (غافر: ٤٠).

وقوله: ﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٤٧، سبأ: ٣٣).

(٨) سبق السيف العذل^(١)، قطعت جهيزه قول كل خطيب^(٢)، جفت الأفلام وطويت الصحف:

قوله تعالى: ﴿قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِينَ﴾ (٤١) ﴿يوسف: ٤١﴾.

(٩) الصيف ضيعت اللبن: (٣)

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرْ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ﴾ (فاطر: ٣٧).

وقوله: ﴿إِنَّ آتَانَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (يونس: ٩١).

(١٠) لاقيني ولا تغديني:

قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى﴾ (البقرة: ٢٦٣).

(١) يعني فات وقت العتاب، قاله ضبة بن أد، لما لامه الناس على قتل قاتل ولده في الحرم.

(٢) كان حيان من العرب يتبادلان الخطابة في شأن قاتل، من حيث العفو أو الدية، فأقبلت أمة تدعى جهيزة، وأخبرتهم بأن أحد أولياء المقتول ظفر بالقاتل وقتله.

(٣) كانت امرأة متزوجة رجلا مسنا موسرا، فطلبت فراقه، وتزوجت شابا فقيرا، فجاءت تطلب من زوجها الأول حليبا، فقال لها ذلك. يعني ضيعت ما كان في ملكك أو في يدك.

(١١) ما تزرع تحصد:

قوله تعالى: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ يَجِدُوهُ﴾ (البقرة: ١١٠).

وقوله: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ (النساء: ١٢٣).

(١٢) لما نضج رمد: ^(١)

قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَى﴾ ^(٢) (النجم: ٣٤).

(١٣) عند الامتحان يكرم المرء أو يهان:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ (آل عمران: ١٠٦).

(١٤) العاقل من اتعظ بغيره:

قوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ﴾ (الحشر: ٢).

(١٥) القتل أنفى للقتل:

قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَوةٌ يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ﴾ (البقرة: ١٧٩).

ميزة القرآن على أمثال العرب:

وجاء في البحر المحيط: ١٥/٢، وقالت العرب فيما يقرب من هذا المعنى: القتل أوفى للقتل، وقالوا: أنفى للقتل، وأكف للقتل. وذكر العلماء تفاوت ما بين الكلامين من البلاغة من وجوه.

(١) يضرب للشيء الذي يهلك عند بدء الانتفاع به.

(٢) أكدى: منع العطاء، من أكدى الحافر: توقف عن الحفر، لأنه وصل إلى صخرة صلبة، نزلت في الوليد بن المغيرة؛ أسلم فغير، فقال أخشى عذاب الله، فضمن أحدهم أن يتحمل عنه العذاب على أن يعطيه بعض المال، فارتد، وأعطى قليلا من المشروط عليه، ثم امتنع، وفيه نزلت هذه الآيات: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تُولِي﴾ أي ارتد عن الإسلام ﴿وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْثَى﴾، أعنده علم الغيب فهو يرى أي يعلم أن صاحبه يتحمل عنه. ﴿أَمْ لَمْ يَبْنَأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ (النجم: ٣٣ - ٣٨).

أحدهما: أن ظاهر كلام العرب يقتضي كون وجود الشيء سببا لانتفاء نفسه، وهو محال.

الثاني: تكرير لفظ القتل في جملة واحدة.

الثالث: الاختصار على أن القتل هو أنفى للقتل.

الرابع: أن القتل ظلما هو قتل، ولا يكون نافيا للقتل، وقد اندرج في عموم قولهم: القتل أنفى للقتل.
والآية المكرمة بخلاف ذلك.

أما في الوجه الأول، ففيه: أن نوعا من القتل - وهو القصاص - سبب لنوع من أنواع الحياة، لا لمطلق الحياة. وإذا كان على حذف مضاف - أي ولكم في شرع القصاص - اتضح كون شرع القصاص سببا للحياة.

وأما في الوجه الثاني: فظاهر لعذوبة الألفاظ، وحسن التركيب، وعدم الاحتياج إلى تقدير الحذف، لأن أنفى، أو أوفى، أو أكف، أفعال تفضيل. فلا بد من تقدير المفضل عليه. أنفى للقتل من ترك القتل.

وأما الوجه الثالث: فالقصاص أعم من القتل، لأنه يكون في النفس وفي غير النفس، والقتل لا يكون إلا في النفس. فالآية أعم وأنفع في تحصيل الحياة.

وأما في الوجه الرابع، فلأن القصاص مشعر بالاستحقاق، فترتب على مشروعيته وجود الحياة، والآية المكرمة فيها مقابلة القصاص بالحياة، فهو من مقابلة الشيء بضده، وهو نوع من البيان يسمى الطباق.

وفضلا عن ذلك، فإن مشروعية القصاص تجعل الجاني يكف عن جريمته كي لا يفعل به مثلما فعل بالمجني عليه، فيحيا هذا، ويحيا ذلك.

والقصاص ينفذه السلطان، فلن يفكر أهل المقتص منه في الأخذ بالثأر، فلا يكون هناك تسلسل في القتل والانتقام، وسيحيا الناس حياة آمنة يزاولون فيها أعمالهم، بخلاف الهارب من الثأر الذي نراه - لاختفائه وفزعه - أقرب إلى الأموات منه إلى الأحياء.

(١٦) اديني عمر، وارميني في البحر، أحرز امرأ أجله: ^(١)
 في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْذِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ (٢٤)
 (الأعراف: ٣٤، النحل: ٦١).
 وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَتَبْنَا مُوَجَلًّا﴾
 (آل عمران: ١٤٥).

أي من كتب موته في وقت لا يتأخر عنه، ولا يتقدم.
 (١٧) وأم الصقر مقلات نزور: ^(٢)
 في قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ ^(٣) (ص: ٢٤).
 (١٨) الأيام دول: يوم لك، ويوم عليك:
 في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (آل عمران: ١٤٠).

(١٩) والنفس من خيرها في خير عافية . . والنفس من شرها في مرتع وخم
 في قوله تعالى: ﴿مَنْ أَهْتَدَىٰ فَلِئِمَّا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَلِئِمَّا يَضِلُّ عَلَيْهِ﴾ (الإسراء: ١٥).

(٢٠) يأيها الرجل المعلم غيره هلا لنفسك كان ذا التعليم
 في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ (البقرة: ٤٤).
 (٢١) كل ابن أنثى وإن طالبت سلامته يوما على آلة حذباء محمول
 في قوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ (آل عمران: ١٨٥).

(١) جاء في مقدمة الأمثال في القرآن لابن القيم، أن قاتل ذلك علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - حين قيل له: أتلقى عدوك حاسر الرأس؟ قال الميداني: يقال: هذا أصدق مثل ضربته العرب.
 (٢) والشرط الأول من البيت: بغاث الطير أكثرها فراخا.
 (٣) وأول الآية: قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه، وإن كثيرا من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض، إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وقليل ما هم.

(٢٢) لا ينجي حذر من قدر:

في قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشِيدَةٍ﴾ (النساء: ٧٨).

(٢٣) على الباغي تدور الدوائر:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ..﴾ (يونس: ٢٣).

وفي قوله تعالى: ﴿فَلَيْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ (النمل: ٥٢).

وقوله: ﴿فَقَطِّعْ دَائِرَ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الأنعام: ٤٥).

وقوله: ﴿هَلْ يَهْلِكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام: ٤٧).

(٢٤) على قدر لحافك مد رجلك:

قوله تعالى: ﴿لَيُنْفِقَ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِ وَمَن قَدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ (الطلاق: ٧).

وقوله تعالى: ﴿وَمَتَّعُوهُمْ عَلَى الْمَوْسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمَقْتَرِ قَدَرُهُ﴾ (البقرة: ٢٣٦). (٢٥) من تدخل في مالا يعنيه لقي مالا يرضيه:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنَ أَشْيَاءَ إِن تُبَدَّلَ لَكُم نُّسُوكُمْ﴾ (المائدة: ١٠١).

ب - ما جرى مجرى المثل:

بعض ما أثر عن جعفر بن شمس الخلافة:

ذكر السيوطي في الاتقان ٤٥/٤٠ - في ختام موضوع أمثال القرآن - فائدة

ذكر فيها: أن جعفر بن شمس الخلافة عقد في كتاب الآداب بابا في الفاظ من القرآن جارية مجرى المثل.

ثم قال: وهذا هو النوع البديعي، المسمى بإرسال المثل، وأورد من ذلك ما يلي:

قوله تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٦).

وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

وقوله: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران: ٩٢).

وقوله: ﴿مَّا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا أَلْبَلَّغُ﴾ (المائدة: ٩٩).

وقوله: ﴿قُلْ لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ﴾ (المائدة: ١٠٠).

وقوله: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُنْقَرٌ﴾ (الأنعام: ٦٧).

وقوله: ﴿مَّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ﴾ (التوبة: ٩١).

وقوله: ﴿ءَاَلَعَنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ﴾ (يونس: ٩١).

وقوله: ﴿أَلَعَنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ﴾ (يوسف: ٥١).

وقوله: ﴿قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ (الإسراء: ٨٤).

وقوله: ﴿ضَعْفَ الطَّالِبِ وَالْمَطْلُوبِ﴾ (الحج: ٧٣).

وقوله: ﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ (الروم: ٣٢).

وقوله: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ (الروم: ٤١).

وقوله: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكُورُ﴾ (سبأ: ٥٤).

وقوله: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (سبأ: ٥٤).

وقوله: ﴿لِيُمَثِّلَ هَذَا فَلَيعْمَلِ الْعَمَلُونَ﴾ (الصفافات: ٦١).

وقوله: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَنِ إِلَّا الْإِحْسَنُ﴾ (الرحمن: ٦٠).

وقوله: ﴿مَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾ (الحشر: ١٤).

وقوله: ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾ (المدثر: ٣٨).

في ألفاظ آخر ما يمكن استنباطه :

وقوله : ﴿ أَفْتُمُنُونَ بَعْضَ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ﴾ (البقرة : ٨٥)

وقوله : ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾ (البقرة : ١٥٦)

وقوله : ﴿ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ ﴾ (البقرة : ٢٢٠)

وقوله : ﴿ وَلَا تَتَّبِعُوا الْخَيْثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ ﴾ ^(١) (البقرة : ٢٦٧)

وقوله : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ﴾ (آل عمران : ١٠٣)

وقوله : ﴿ إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ﴾ (آل عمران : ١٦٠)

وقوله : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ ﴾ (النساء : ٣٤)

وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ ﴾ (النساء : ٧١)

وقوله : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ ﴾

(النساء : ٧٩)

وقوله : ﴿ مَنْ يَسْتَفْعِ شَفْعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَسْتَفْعِ شَفْعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ

لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا ﴾ (النساء : ٨٥)

وقوله : ﴿ * لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّنْ نَّجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ

بَيْنَ النَّاسِ ﴾ (النساء : ٨٥)

وقوله : ﴿ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (المائدة : ٣٠)

وقوله : ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ﴾ (الأنعام : ٣٤)

وقوله : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ (الأنعام : ٥٩)

(١) والذي يلي ذلك : ﴿ وَلَسْتُمْ بِأَخَذِهِ إِلَّا أَنْ تَغْمِضُوا فِيهِ ﴾ أي تتساهلون فيه ، وتغضون الطرف عن

رداءته .

- وقوله: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ (الأنعام: ٦١)
- وقوله: ﴿لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ﴾ (الأنعام: ٦٧)
- وقوله: ﴿إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ﴾ (الأنعام: ١٣٤)
- وقوله: ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾ (الأنعام: ١٤٩)
- وقوله: ﴿فَوْقَ الْحَقِّ وَبَطْلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ^(١) ﴿١١٨﴾ (الأعراف: ١١٨)
- وقوله: ﴿وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ (الشورى: ٢٤)
- وقوله: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعُهُمْ﴾ (الأنفال: ٢٣)
- وقوله: ﴿فَإِذَا بَعَدَ الْحَقُّ إِلَّا الضَّلَلُ﴾ (يونس: ٣٢)
- وقوله: ﴿لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ﴾ (يونس: ٦٤)
- وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ ^(٨١) ﴿٨١﴾ (يونس: ٨١)
- وقوله: ﴿مَا مِنْ دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا﴾ (هود: ٥٦)
- وقوله: ﴿أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ ^(٧٨) ﴿٧٨﴾ (هود: ٧٨)
- وقوله: ﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ﴾ (هود: ٨٨)
- وقوله: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾ (هود: ١١٣)
- وقوله: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود: ١١٤)
- وقوله: ﴿وَالِيهِ يَرْجِعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ﴾ (هود: ١٢٣)
- وقوله: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ﴾ (يوسف: ٢١)
- وقوله: ﴿إِنْ كَيْدُكُمْ عَظِيمٌ﴾ ^(٢٨) ﴿٢٨﴾ (يوسف: ٢٨)

(١) وقع: ظهر، وتبين، وفي البحر المحيط: ٣٦٤/٤ ، قال أرباب المعاني: الوقوع: ظهور الشيء بوجوده نازلاً إلى مستقره، قال القاضي: فوق الحق: يفيد قوة الظهور والثبوت، بحيث لا يصح فيه البطلان، كما لا يصح في الواقع أن يصير إلا واقعا.

- وقوله: ﴿إِن الْحُكْمُ لِلَّهِ﴾ (يوسف: ٦٧)
- وقوله: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٧٦)
- وقوله: ﴿إِنَّمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُرْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (يوسف: ٨٦)
- وقوله: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ﴾ ^(١) (يوسف: ٩٢)
- وقوله: ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (يوسف: ١٠٣)
- وقوله: ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا تَنَوَّكَلْ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَيْنَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ﴾ (ابراهيم: ١٢)
- وقوله: ﴿وَلَكُم فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرْجَوْنَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل: ١٢٨)
- وقوله: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٨)
- وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ ^(١٢٨) (النحل: ١٢٨)
- وقوله: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزَنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ﴾ (الاسراء: ٣٥)
- وقوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ ^(٢) (الاسراء: ٣٦)
- وقوله: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ﴾ (الاسراء: ٨١)
- وقوله: ﴿قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ﴾ (الاسراء: ٨٤)
- وقوله: ﴿وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى﴾ (مريم: ٧٦)
- وقوله: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ اتَى﴾ (طه: ٦٩)
- وقوله: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣)

(١) وقد قالها بعد يوسف عليه السلام، أي تمثل بها سيد الخلق - صلى الله عليه وسلم - يوم الفتح لأهل مكة الذين آذوه وحاربوه، وقد ملك أمرهم، وعنده القدرة على الثأر، فقد ذكر الواقدي في المغازي ٨٢٩ . أنه صلى الله عليه وسلم لما قال لقريش: ما تظنون أني فاعل بكم؟ قالوا: خيرا، أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: فإني أقول كما قال أخي يوسف: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ ولا تثريب: لا لوم، ولا تأثيم، ولا مواخذة.

(٢) لا تتبع الظن فتتهم الناس بالباطن، لقوله تعالى: ﴿إِن بَعْضُ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات: ١٢).

- وقوله: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ (الأنبياء: ٣٤)
- وقوله: ﴿وَرَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ (الأنبياء: ١١٢)
- وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْفِعُ عَنِ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ (الحج: ٣٨)
- وقوله: ﴿هِيَآتَ هِيَآتَ لِمَا تُوعَدُونَ﴾ (المؤمنون: ٣٦)
- وقوله: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ (الفرقان: ٢٩)
- وقوله: ﴿وَكَانَ الْكَافِرُ عَلَى رَبِّهِ ظَهِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٥)
- وقوله: ﴿فَعَقَرُوهَا فَاصْبَحُوا تَلَدِينَ﴾ (الشعراء: ١٥٧)
- وقوله: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ (الشعراء: ٢٢٧)
- وقوله: ﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَرِغًا﴾ (القصص: ١٠)
- وقوله: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنْ آسَنَجَرْتَ الْقَوَى الْأَمِينُ﴾ (القصص: ٢٦)
- وقوله: ﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأُولَىٰ﴾ (القصص: ٣٦)
- وقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ (القصص: ٦٨)
- وقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ (القصص: ٦٩)
- وقوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ (القصص: ٨٤)
- وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ (١) (القصص: ٨٥)
- وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (العنكبوت: ٦٩)

(١) ذكر الطبري في تفسيره: ١٢٥/٢٠ أن من معاني هذه الآية - وقد نزلت في أثناء الهجرة: أن الذي أوجب عليك تلاوة القرآن، وتبليغه، والعمل بما فيه، لرادك إلى بلدك الذي خرجت منه، وهو مكة، وسمي بلد الرجل الذي كان فيه معادا، لأنه - عادة - يتصرف في البلاد، ثم يعود إليه، فهذه الآية الكريمة يقولها المسافر عند خروجه - اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم - ليرده الله سالما.

- وقوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم: ٤٧)
- وقوله: ﴿وَلَا تُصْعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ ^(١) (لقمان: ١٨)
- وقوله: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّنْ قَلْبَيْنِ فِيْ جَوْفِهِ﴾ ^(٢) (الأحزاب: ٤)
- وقوله: ﴿لِيَجْزِيََ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ﴾ (الأحزاب: ٢٤)
- وقوله: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَىَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ﴾ (الأحزاب: ٢٥)
- وقوله: ﴿وَتَخَشَّى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ ^(٣) (الأحزاب: ٣٧)
- وقوله: ﴿عَنْ أَهْلِ سِبَا: ﴿بَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَرَقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ (سبأ: ١٩)
- وقوله: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ ^(٤) (سبأ: ٢٠)
- وقوله: ﴿وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِّنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ ^(٥) (سبأ: ٣٩)
- وقوله: ﴿قُلْ إِنْ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَـمُ الْغُيُوبِ﴾ ^(٦) (سبأ: ٤٨)

(١) أي: لا تغل صفحة وجهك عن الناس، ولا تعرض عنهم، كما يفعل أهل الكبر. والصغر - في الأصل -: داء يصيب البعير، فيلوي منه عنقه، كني به عن التكبر واحتقار الناس، (صفوة البيان).

(٢) وبعد ذلك قوله: ﴿وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهَرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ، وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ﴾. ومما قاله العلماء في العلاقة بين الأشياء الثلاثة: رتب الثاني والثالث على الأول حكما، حيث إن المرء له قلب واحد، به الاعتقاد، وبه العمل، فلا يجوز أن يكون مؤمنا ويعمل عمل أهل الجاهلية الذي ينافي الإيمان، كالظهار، والتبني، وإنما يجب أن يكون عمله على وفق اعتقاده.

(٣) أي: تستحي بما يقوله الناس عنك، والله وحده هو الذي تستحي منه، فتفعل ما أباحه لك، وتبديه ولا تخفيه، وكان النبي قد أخبره الله بأن زيد بن حارثة سيطلق زينب، ويتزوجها الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأمر من الله، لإبطال عادة التبني، وجاءه زيد يشكو سوء معاملتها له، فقال له: أمسك عليك زوجك - ولم يخبره، خشية ملامة الناس له، لتزوجه حليلة متبناه.

(٤) فقد أغواهم، فحقق ما توعد به، من مثل ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ (الأعراف: ١٦)، ﴿لَا حَتَكُنْ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الاسراء: ٦٢).

وقوله: ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِيُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ (١٦) ﴿سبأ: ٤٩﴾

وقوله: ﴿مَا يَفْتَحُ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا﴾ (فاطر: ٢)

وقوله: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ﴾ (فاطر: ٦)

وقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدِ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ (فاطر: ١٠)

وقوله: ﴿وَمَكَرُ أَوْلِيكَ هُوَ يُبَوِّرُ﴾ (فاطر: ١٠)

وقوله: ﴿إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ (فاطر: ١٤)

وقوله: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ (١٧١) ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ﴾ (١٧٢) وَإِنْ جُنَدْنَاهُمْ لَغَالِبُونَ﴾ (١٧٣) ﴿الصفافات: ١٧١ - ١٧٣﴾

وقوله: ﴿وَلَاتِ حِينَ مَنَاصٍ﴾ (ص: ٣)

وقوله: ﴿وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ (ص: ٨٨)

وقوله: ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ (الزمر: ٤٨)

وقوله: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا﴾ (الزمر: ٥١)

وقوله: ﴿وَيُجِىءُ اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوْا بِمَفَازَتِهِمْ﴾ (الزمر: ٦١)

وقوله: ﴿وَلَا تَسْتَوِ الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ﴾ (فصلت: ٣٤)

وقوله: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ (فصلت: ٤٢)

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ (فصلت: ٤٦)

وقوله: ﴿إِلَيْهِ يَرْدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ (فصلت: ٤٧)

(١) عند مجيء الحق، فلا يبقى للباطل شيء بيديه أو يعيده، وذلك كقوله تعالى: ﴿فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ﴾ (الحاقة: ٨).

- وقوله: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَسَى بِجَانِبِهِ﴾ (فصلت: ٥١)
- وقوله: ﴿وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ﴾ (الشورى: ٢٧)
- وقوله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾ (الشورى: ٤٠)
- وقوله: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ (الشورى: ٤٠)
- وقوله: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ﴾ (الشورى: ٤٨)
- وقوله: ﴿يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنِشَاءً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الْذُّكُورَ﴾ (الشورى: ٤٩)
- وقوله: ﴿وَمَنْ يَعِشْ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقِيضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ (الزخرف: ٣٦)
- وقوله: ﴿وَبَدَأْ لَهُمْ سَعَاتٍ مَا عَمِلُوا﴾ (الجاثية: ٣٣)
- وقوله: ﴿وَلَنْ نَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ (الفتح: ٢٣)
- وقوله: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ (الحجرات: ١٢)
- وقوله: ﴿مَا يَلْفُظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق: ١٨)
- وقوله: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ﴾ (الحشر: ١٣)
- وقوله: ﴿عَسَى اللَّهُ أَنْ يَجْعَلَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ الَّذِينَ عَادَيْتُمْ مِنْهُمْ مَوْدَّةً﴾ (الممتحنة: ٧)
- وقوله: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أَمْرًا﴾ (الطلاق: ١)
- وقوله: ﴿قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةً﴾ (التحریم: ٢)
- وقوله: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (التكوير: ٢٩)
- وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ (البلد: ٤)
- وقوله: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ (الضحى: ١١)
- وقوله: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ (التين: ٤)

خاتمة

بعد هذه الرحلة الجليلة مع كتاب الله عز وجل والتي سعدت بها أيما سعادة، فقد تبين لي وللقارئ لون من ألوان الإعجاز البياني في القرآن الكريم، والذي يعنى بإبراز المعاني في قالب المحسوس.

وقد قصدت في هذا البحث أن أمحص الحديث عن الأمثال دون إطالة فيما تزخر به الآيات من درر المعاني والحكم.

كما ذكرت مالم يذكره بعض من كتبوا عن الأمثال، مما ورد على سبيل المقارنة من مثل: أفمن، أم من.

وذكرت - أيضا - كثيرا من الأمثال السائرة التي يزخر بها القرآن الكريم، حيث أنه في أعلى درجات الحكمة.

وقد توخيت الدقة والصوات فيما نقلت وكتبت، فإن أكن قد وفقت فذلك من فضل الله ومنه. وإن يك غير ذلك فحسبي أنني لم أدخر وسعا. وسبحان من تفرد بالكمال.

وإني لأضرع إلى الله أن ينفع بذلك، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

فهرس الإعلام المترجم لهم

- ١ - النخعي: أبو عمران وأبو عمار: إبراهيم بن يزيد بن الأسود: ابن مالك بن النخع ص ١١.
- ٢ - الميداني: أبو الفضل: أحمد بن محمد بن أحمد النيسابوري. ص ١.
- ٣ - الجوهري: إسماعيل بن حماد، أبو نصر. ص ٨.
- ٤ - السدي: إسماعيل بن عبد الرحمن بن أبي كريمة السدي. ص ٣٨.
- ٥ - العماد النيهي: أبو محمد: الحسن بن عبد الرحمن بن الحسين بن محمد النيهي ص ١١.
- ٦ - الحسين بن الفضل بن عمير البجلي الكوفي. ص ٦.
- ٧ - ابن عطية: عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن، المحاربي. ص ٥٦.
- ٨ - القشيري: عبد الرحيم بن عبد الكريم بن هوازن النيسابوري. ص ٥٧.
- ٩ - الخفاجي: عبدالله بن محمد بن سعيد بن سنان. ص ٣.
- ١٠ - البغوي: أبو القاسم: عبدالله بن محمد بن عبدالعزيز البغوي. ص ١١.
- ١١ - ابن الصلاح: أبو عمرو: عثمان بن عبد الرحمن. ص ١١.
- ١٢ - الكسائي: أبو الحسن: علي بن محمد بن حبيب ص ١.
- ١٤ - أبو عبيد: القاسم بن سلام ص ١١.
- ١٥ - الحريري: أبو محمد: القاسم بن علي ابن محمد بن عثمان. ص ١٠.
- ١٦ - ابن بحر: محمد بن بحر الأصفهاني، أبو مسلم. ص ٢٢.
- ١٧ - الزركشي: الامام بدر الدين محمد بن عبدالله. ص ٢.
- ١٨ - ابن العربي: أبو بكر: محمد بن عبدالله ص ٢.

- ١٩ - فخر الدين: أبو عبدالله: محمد بن عمر بن الحسين. ص ٣.
- ٢٠ - الأنباري: أبو بكر: محمد بن أبي محمد القاسم النحوي. ص ١٩.
- ٢١ - ابن شهاب: محمد بن مسلم بن عبدالله الزهري. ص ١١.
- ٢٢ - المبرد: أبو العباس: محمد بن يزيد بن علي الأكبر. ص ١.
- ٢٣ - الفيروز بادي: مجد الدين: محمد بن يعقوب ص ١.
- ٢٤ - الزمخشري: جاد الله، أبو القاسم محمود بن عمر. ص ٢.
- ٢٥ - الأصبهاني: الامام عبدالله مسعود بن محمود بن أحمد. ص ٣.
- ٢٦ - أبو عبيدة: معمر بن المثنى التيمي. ص ١٠.
- ٢٧ - البوصيري: هبة الله بن علي بن مسعود الأنصاري الخزرجي، المصري ص ٥٩.
- ٢٨ - البجلي: يحيى بن المهلب، أبو كدينة الكوفي. ص ٥٧.
- ٢٩ - ابن السكيت: أبو يوسف: يعقوب بن اسحاق. ص ١.

ثبت المراجع

- الإتقان في علوم القرآن، لجلال الدين عبدالرحمن أبو بكر السيوطي المتوفى سنة ٩٩١هـ، ط مصطفى الحلبي - القاهرة.

- أحكام القرآن، لأبي بكر: محمد بن عبدالله المعروف بابن العربي، المتوفى سنة ٥٤٣هـ، تحقيق: علي محمد البجاوي. ط - دار المعرفة - بيروت.

- أحكام القرآن، للإمام أبي بكر: أحمد بن علي الرازي الجصاص المتوفى سنة ٣٧٠هـ، ط دار الكاب العربي - بيروت.

- إنباء الرواة على أنباء النحاة، لجمال الدين أبو الحسن: علي القفطي المصري، المتوفى ٦٤هـ، تحقيق أبو الفضل إبراهيم، ط مطبعة دار الكتب المصرية - القاهرة.

- البحر المحيط، لأبي عبدالله: محمد بن علي بن يوسف الأندلسي الشهير بأبي حيان، المتوفى سنة ٧٥٤هـ، مكتبة النصر الحديثة - الرياض.

- البرهان في علوم القرآن، للإمام بدر الدين: محمد بن عبدالله الزركشي، المتوفى سنة ٧٩٤هـ، تحقيق المرحوم محمد أبو الفضل إبراهيم - ط عيسى الحلبي بمصر.

- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، لمجد الدين: محمد بن يعقوب الفيروز أبادي، ت ٨١٧هـ - المكتبة العلمية، بيروت.

- بغية الوعاء، لجلال الدين: عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ، ط دار المعرفة - بيروت.

- تفسير القرآن العظيم، لأبي الفداء: إسماعيل بن كثير القرشي المتوفى سنة ٧٧٤هـ، طبع عيسى الحلبي - مصر.

- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) للإمام فخر الدين الرازي، أبو عبدالله: محمد بن عمر القرشي - المتوفى سنة ٦٠٦هـ دار الكتب العلمية - طهران.

- جامع البيان عن تأويل أي القرآن، لأبي جعفر: محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ، الطبعة الثانية - مصطفى الحلبي - بمصر.

- الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبدالله: محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي المتوفى سنة ٦٧١هـ، الطبعة الثانية - دار الكتب بمصر.

- الدر المنثور في التفسير بالمأثور، لجلال الدين: عبدالرحمن بن أبي بكر السيوطي، المتوفى سنة ٩١١هـ، ط مؤسسة الرسالة - بيروت.

- سنن أبي داود، سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي المتوفى سنة ٢٧٥هـ، مراجعة المرحوم محمد محيى الدين عبدالحميد، ط دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لأبي الفلاح: ابن العماد الحنبلي المتوفى سنة ١٠٩٨هـ، ط مكتبة القدس - القاهرة.

- صحيح البخاري، لأبي عبدالله: محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن مغيرة البخاري الجعفي - المتوفى سنة ٢٥٦هـ ط دار إحياء التراث العربي - بيروت.

- صحيح مسلم، للإمام أبي الحسين: مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري - المتوفى سنة ٢٦١هـ، بشرح الإمام النووي: يحيى بن شرف بن مري، الحزامي الشافعي، المتوفى سنة ٦٧٦هـ، ط المطبعة المصرية ومكتبتها - مصر.

- طبقات الحفاظ للسيوطي، تحقيق علي محمد عمر، ط مكتبة وهبة - القاهرة.

- طبقات المفسرين، للحفاظ شمس الدين: محمد بن علي بن أحمد الداودي المتوفى سنة ٩٤٥هـ، تحقيق علي محمد علي، ط مكتبة وهبة بالقاهرة.

- فتح الباري بشرح صحيح البخاري: للإمام الحافظ: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني - المتوفى سنة ٨٥٢هـ، ط المطبعة السلفية - القاهرة.

- فوات الوفيات، لمحمد بن شاکر بن أحمد، الکتبی، المتوفى سنة ٧٦٤هـ، تحقیق محمد محیی الدین عبدالحمید، ط مكتبة النهضة المصرية - القاهرة.

- الکشاف عن حقائق التنزیل وعیون الأقاویل فی وجوه التأویل، لأبی القاسم جار الله محمد بن عمر الزمخشري، المتوفى سنة ٥٣٨هـ - ط مصطفى الحلبي - القاهرة.

- کشف الظنون عن أسامي الکتب والفنون، للشیخ مصطفى بن عبدالله القسطنطی، الشهیر بالحاج خليفة المتوفى سنة ١٠٦٧هـ، ط المطبعة الإسلامية بطهران، تصویر مكتبة المثنى ببغداد.

- اللباب فی تهذیب الأنساب، لأبی الحسن: علي بن محمد بن عبدالکريم الشيباني، المعروف بابن الأثير الجزري، المتوفى سنة ٦٣٠هـ، ط مكتبة المثنى - بغداد.

- اللؤلؤ والمرجان فیما اتفق علیه الشیخان، جمعه المرحوم محمد فؤاد عبدالباقي ط أوقاف الكويت.

- مسند الإمام أحمد، للإمام أحمد بن حنبل المتوفى سنة ٢٤١هـ، ط دار صادر - بیروت.

- معجم البلدان، لیاقوت الحموي، ط دار إحياء التراث العربي - بیروت.
- الموطأ، لإمام الأئمة: مالک بن أنس، المتوفى سنة ١٧٩هـ، تحقیق المرحوم فؤاد عبدالباقي، ط مطابع الشعب - مصر.

- میزان الاعتدال فی نقد الرجال، للإمام أبي عبدالله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ، تحقیق علي محمد البجاوي، ط عيسى الحلبي - مصر.

- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدین أحمد بن محمد بن أبي بكر بن خلکان، المتوفى سنة ٦٨١هـ، تحقیق د. إحسان عباس، ط دار صادر - بیروت.

Similitudes in The Glorious Qur a n

*Dr. Muhammad 'Abdul-Salam
Abu Al-Neel*

Among the greatest blessings of Allah upon His servant is to guide him to dedicate himself for Qur'anic studies which nourish his soul, enlight his inner insight, and delight his intellect. Attracted by the great number of similtudes, proverbs, and other forms of figurative speech in the Glorious Qur'an, I, by the grace of Allah, spent a good long time studying that Great Book, living with its rich verses, and came out with precious harvest of knowledge.

It is true that there are many valuable books written about the similitudes of Al-Qur'an, one of the best of them is 'Ibn Al-Qayyim's wonderful book, but this did not turn me away from a a new attempt in this field to gather and organize that dispersed literature in a concise and easy form in order to be accessible and understandable to the readers.

Also, I drew the attention to, and offered a good number of examples of, the Qur'anic similitudes which became widely circulated. This point, admittedly, was pointed at by previous scholars, but they did not survey them thoroughly.

The paper intended to examine closely this aspect of Al-Qur'an, and to complete what other scholars missed, such as those similitudes starting with:

I tried my best to be as accurate and objective as possible; I hope that my Lord has helped me achieve some success, otherwise it is my own shortcoming.